شفيق جبري

العناصر النفسية في سياسة العرب

اقرأ ٣٧

تصدرها دار المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف

اقرأ ٢٧ — ديسمبر سنة ١٩٤٥



فاتحة القول

لو بعث في يومنا المؤرخون الذين دونوا تاريخ العـــرب في الماضي فنظروا في الذي كتبوه في هذا الباب ، لكان أسلوبهم في الحكم على الرجال والأخبار غير أسلوبهم الأول ، لا شك في أنهم كانوا لا يغفلون في هذا العصر العناصر النفسية في سياسة الأفراد والجماعات والأمم ، كانوا إذا تكلموا على رجل من رجال العرب تولى مقاليـد الأمر والنهي في زمن من الأزمان جعلوا للعنصر النفسي في كلامهم مقاماً ، فإذا نجحت سياسة هذا الرجل في الناس أو إذا لم تنجح هذه السياسة فإنهم كانوا يبحثون عن العوامل التي أدت إلى النجاح أو الإخفاق ، وقد تكون هـذه العوامل مرة اجتماعية ومرة اقتصادية أو غير ذلك ، وكيف كان الأمر فإن للعوامل النفسية في النجاح والإخفاق شأناً غير قليل .

لقد تؤثر في مصير الناس أمور شتى ، ولكن أعظم هـذه

الأمور سلطاناً إنما هى العوامل النفسية ، ولو تذكرنا التعبير الذى ولدته هذه الحرب وهو «حرب الأعصاب» لعرفنا حق المعرفة أن لعلم النفس منزلة عظيمة فى الحروب ، وقد كان له مثل هذه المنزلة فى الحرب الماضية ، وعلى الرغم من هذا كله لا يزال علم النفس ضعيفاً ، فلا تزال الأمم يجهل بعضها أخلاق بعض ، كما جهل الأمريكان أخلاق اليابانيين فى بدء الحرب ، فبينما كان الأمريكان واليابانيون يتفاوضون قبل تحاربهم على وجه سلمى كان أسطول اليابانيين يضرب أسطول الأمريكان ، ولما اطلع الأمريكان على هذا الأمر قالوا : لم يخطر ببالنا غدر اليابانيين ! ولو كانوا عالمين بأخلاق جيرانهم لما قالوا هذا القول ، ولما غلطوا هذه الغلطة . فالسياسة مبنية على معرفة أخلاق الأفراد والجماعات والأمم ، وعلى معرفة الأحوال التى تتغير فيها هذه الأخلاق ، وهذه المعرفة النفسية إنما هى أقوى أساس فى بنيان السياسة .

على أنه قد استطاع بعض الرجال فى خلال التاريخ أن يعرفوا ما نسميه : روح الجماعات والأفراد ، وكانت هذه المعرفة سبب نجاح سياستهم ، وقد طبق علم النفس فى الحروب فكان له شأن عظيم ، وإذا كان المجال لا يتسع للإفاضة فى هذا المعنى

فلا أقل من الإشارة إلى مثل واحد من أمثال تطبيق علم النفس في الحرب .

يقال في بعض القلاع والحصون ، على ما ذكره الدكتور « غستاف لوبون » في كتابه : تطور العالم ، أن قسما من جهاتها لا يمكن الاستيلاء عليه ، ولهذا الاعتبار يبقى هذا القسم ضعيف التحصين ، وقد استفاد بعض القواد من هذه الغلطات النفسية ، فرأوا أن يهجموا على القلاع والحصون التي هي من هذا النوع من الجهة التي قيل فيها لا يمكن الاستيلاء عليها ، فظفروا بما أرادوا ، وقد جربت هذه الطريقة في الحرب الماضية من قبل الألمان ومن قبل الفرنسيين فنجحت ، وهي طريقة نفسية .

هذا عمل من أعمال علم النفس في الحروب ، أما في السياسة العامة فإنه يعلمنا الفن الصعب الذي نقود به الجماعات والأفراد ونحول به عواطفهم ، وقد تمثل « لوبون » في هذا الباب برواية من روايات « شكسبير » فمن طالع هذه الرواية استطاع أن يجد فيها دليلا واضحاً على ذلك في الخطاب الذي ولده « شكسبير » على لسان « انطونيوس » لما استثار الجماهير أمام جثة قيصر .

لا شيء أصعب من سياسة الناس ، لأن الرجل عادة مركب

من شخصيات شتى ، لا تظهر إلا فى أحوال معينة ، وما هذا الثبات الذى نراه فى شخصية كل واحد منا إلا شكل ظاهر لا غير ، تثبت هذه الشخصية بثبات أحوال معينة ، فإذا تغيرت هذه الأحوال تغيرت شخصية الرجل ، فالهادئ ، قد يصبح ثائراً ، والرقيق قد يصبح قاسياً ، والفاضل قد تتناثر فضائله ، فإذا جهل رجال السياسة هذه الخفايا النفسية فإن جهلهم يؤدى إلى الإخفاق فى سياستهم أو إلى الذهاب بحياتهم أو إلى القضاء على بلادهم فى بعض الأحيان .

لا أجد سبيلا إلى التوسع فى هذه المقدمة ، وإنما حسبى من كل ماذكرت أن أشير على سبيل الإيجاز إلى أن السياسة المجردة من علم النفس إنما هى سياسة مفشفشة . بقى على أن أذكر نماذج من سياسات العرب التى نجحت أو التى لم تنجح ، وكان لنجاحها أو لإخفاقها عوامل متفاوتة ، أقف منها فى هذا الكتاب على العامل النفسى وحده ، دون الكلام على غيره .

لقد طالعت كتبا فى تاريخ العرب وأدبهم ، فكنت فى خلال هذه المطالعة أمر بأمور تدل على معرفة أصحابها بنفوس الناس ووقوفهم على طباعهم وأمزجتهم وأخلاقهم ، وأمور تدل على

الانحراف عن هذه المعرفة . وقد تبين لى أن أكثر العمال والأمراء والخلفاء الذين حسنت سياستهم للناس وحمد الناس أيامهم إنما هم الذين خالطوا نفوس الأفراد والجماعات والأمم ومازجوها فانكشفت لهم أسرارها ووقفوا على مواطن الضعف والقوة فيها ، أما الذين كان نصيبهم من هذه المعرفة النفسية قليلا فقد تعبوا فى سياستهم ووقعوا فى الورطات .

وغايتى فى هذا الكتاب أن أبسط ما خطر ببالى من الخواطر فى أثناء مطالعتى للأمور التى ذكرتها ، وليس اهتمامى بأن أكون مصيباً فى خواطرى على قدر اهتمامى بأن أمهد للقارئ الكريم سبيلا إلى فهم التاريخ من الناحية النفسية ، فإذا استطاع بعد نظره فى نماذج السياسات التى سأذكرها أن يتصفح التاريخ على النحو الذى تصفحته فقد بلغت ما أريد ، وسواء على بعد هذا أكان يشاركنى فى آرائى أم كان ينفرد بآرائه ، إنما المهم بعد اليوم أن نقرأ التاريخ من نواحى عناصره النفسية حتى يكون فهمنا له أتم ونظرنا فى فلسفته أكمل .

سيد العرب

قالت سيدتنا عائشة : دخل أبو بكر على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو مضطجع وعليه ثوبه ، فقضى حاجته وخرج ودخل عمر ، فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء علي ، فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء عثمان ، فجلس له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالت له عائشة : لم تصنع هذا بأحد ، فقال : إن عثمان رجل حيي ، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلي في حاجته .

* * *

قد نمر بخبر مثل هذا الخبر ، فإما أنا لا نحفل به ، وإما أنا لا نهتدي إلى جلالة قدره في معرفة عبقرية سيدنا محمد ، فهو عنوان من عناوين هذه العبقرية ، وما أظن أن الذين كتبوا في سيرة الرسول أهملوا الاهتمام بأشباه هذا الخبر ، ولو فعلوا لما كانت كتابتهم كتابة ، فقد كان سيدنا محمد عالماً بنفوس جماعته وصحابته ، واقفاً على دقائق أخلاقهم ، محيطاً بغوامض أمزجتهم ، يعلم ما يغضب

له فلان من الصحابة ، وما يرضى به فلان ، ويعرف ما يستثير فلاناً وما يهدأ به فلان ، فعامل كل واحد منهم المعاملة المناسبة له ، اللائقة به ، حتى أشربت القلوب محبته ، وانطوت على طاعته ، فلم ينفض أحد من حوله . وهذا منتهى الحذق فى سياسة الناس . وليس يعلم ما لهذه الأمور النفسية من الأثر فى سياسة الخلق إلا الذين كتب لهم أن يمارسوا هذه السياسة ويعالجوها ، فما أكثر الذين ينفضون من حول زعيم من الزعماء لأنه فظ غليظ القلب ، وما أكثر الذين ينضمون إلى رئيس من الرؤساء لأنه رقيق القلب ، لطيف الحس ، ينزل الناس منازلهم ، ويخاطبهم على قدر مراتبهم ، وهذه حكمة يختص الله بها من يشاء ، ويحرمها من يشاء ، ولهذا الاختصاص، ولهذا الحرمان، أبلغ الأثر فى التوفيق فى سياسة الناس أو فى الإخفاق فيها .

*
* *

وقريب من هذا الخبر ما جاء فى بعض الأحاديث : فقد أذن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، للناس ، فكان آخر من دخل عليه أبا سفيان بن حرب ، فقال : يارسول الله ! لقد أذنت للناس

قبلي ، حتى ظننت أن حجارة الخندمة [١] ليؤذن لها قبلي ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أما والله إنك والناس لكما قال الأول [٢] : كل الصيد في جوف الفرا . أي كل شيء لهؤلاء من المنزلة ، فإن لك وحدك مثل ما لهم كلهم !

*
* *

قد نظن أن هذا الخبر لا يدلنا إلا على منزلة أبي سفيان وحدها ، ولكن فيه عنصراً آخر من عناصر سياسة الرسول . إنا نعلم أن أبا سفيان كان سيداً من سادات قريش في الجاهلية ، كانت عنده العُقاب راية قريش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب ، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . وكان رأساً من رؤوس الأحزاب في الإسلام ، إلا أن سيدنا محمداً لما قال له : كل الصيد في جوف الفرا ، لم يقصد إلى الدلالة على مكانته وحدها ، وإنما

---

(١) جبل بمكة

(٢) يقول الجاحظ إن هذا الكلام : كل الصيد في جوف الفرا ، لم يسمع لأحد ولا ادعاه أحد غير النبي ، فقول صاحب الأغاني : لكما قال الأول ، يحتاج إلى تحقيق .

حرج بها الكلام من فمه حرجا ، وإن قال في مغيب ، حتى
عصفت أن حجارة خشنة [illegible] يهذو ، [illegible]
ثورة أعصابه وهيجان نفسه وشدة حنقه ، ومن يدري ما كان
يجر إليه هذا الكلام ثم يجري بي لتخفيف من هذه الثورة
وتعصب ، وقد رأى سيدنا محمد في وجه أبي سفيان هذا كله ،
وعرف أن مرور هذه الثورة شيئا لا تحمد عقباه ، فتلافى الأمر
بما من حكمته وعطف قصته ، بأن قوله ، كل الصيد في جوف
الفرا ، فقد أبا سفيان من حب لي حب في قلبي من [illegible]
فقد قصه من العصب إلى الرضى ، ومن الثورة في هدوء ، ومن
العبوس في طلاقة وبهذا بقي لرسول لأبي سفيان بعد هذا
كلام فقد كان أبو سفيان مستعدا عقبه ، لأن ثورته قد هدأت
ونفسه قد سكنت ، ولم يعرف وكره إلا في هذه [illegible] التي
[illegible] سيدنا محمد [illegible] مثل هذا الأسلوب في معاملة
الناس لخاصة من [illegible] الطيب ، فليس بالأمر اليسير أن يدخل
عليك رجل مشتطا عنيفا ، يغضي غضبا ، وترى هذا كله في
وجهه ، ثم تخرجه في أقل من ثوان من حال إلى حال ، وذلك

بكلمة تهتدى بها فى حينها وتضعها فى موضعها ، فتكون هذه
الكلمة بمنزلة الثلج الذى يوضع على كبد محموم .

هذه عبقرية لماحة فى معرفة أسرار النفوس تغنى من الغضب
والرضى والثورة والهدوء . وشهرة مثل هذه الشهرة نجحت
سياسة سيدنا محمد فى جماعة فيهم مثل أبى سفيان ، وما كان
نجاحها بقليل !

☆
☆ ☆

لقد عشت فى هذه الحياة أمرين بسيطين جداً ، ولكن هذه
الأمور البسيطة التى لا تخلى فى أثناء اطلاعنا عليها عن عبقرية
يحتاج صاحب مذهب من المذاهب ومعتقد من المعتقدات أو
دين من الأديان ، عادة ، معرفة أهل البيئة التى يبشر فيها دعوته ،
لاصقاً بأخلاقهم وطبائعهم ، واقفاً على مداخلهم ومخارجهم ، وخليق
بالدعوة أن لا تذهب عبثاً . وما أظن أن أحداً بلغ من معرفة النفوس
ما بلغه سيدنا محمد ، فقد غزا بيئة من عادة إلى عادة ، وأدخل على
عالمه الجديد أفكاراً وعواطف لا عهد لها بمثلها . وليس
بالأمر السهل أن يبث فى بيئة معروف أمرها فى العصبية والنخوة
كلها عادات طبعوا على السيادة فيفتح قلوبهم ويهدم آراءهم .

لا يكاد يكون شيئاً جديداً [illegible] محمد في حق [illegible]
[illegible] في كلام [illegible] عليه الصلاة والسلام [illegible]
[illegible] متعددة من [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الأخلاق [illegible]

يوم السقيفة

للعقيدة الدينية في سياسة العرب مظهر خفي ، ومزية [illegible]
هذه العناصر في مقدمة الناس على مقدار [illegible] ،
على نحو ما سبقت الإشارة إليه في الكلام على سيادة محمد ،
ومزية تظهر في حروب الناس على أمر محمد العربي ، على
نحو ما جرى في يوم السقيفة

هذا اليوم قد حسم أمورًا لا شبهة في أنها من أمور الإسلام
بعده ، فقد قبض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وكان شأن
الإسلام محتومًا به ، ولكن هذا الشأن [illegible] .

إلى من تصير الخلافة بعد النبي ؟ هذه هي المسألة [illegible] ،
وقد كانت فيها أحزاب وآراء ، فجماعة من بني هاشم تميل إلى علي
بن أبي طالب وعمه العباس ، وجماعة من بني أمية
إلى عثمان بن عفان ، وجماعة من [illegible] بن سعد وعبد الرحمن
بن عوف ، هذه جهات مختلفة ، ولكل جهة منها أنصار الذي كان

يشاء غيره ، ولكن شيئاً يسيراً من معرفة نفوس الناس وطبائع
البشر يكفي لتعيين

إن من طمع في الخلافة بعده الأنصار ، فإنهم آووه ونصروه ،
ما فكر شيخ من شيوخ الأنصار إلا في سعد بن عبادة ، وهو من
الخزرج ، وفي بيته نوقش أمر المسلمين بعد وفاة سيدنا محمد ،
وكان مريضاً لا يستطيع أن يسمع الناس كلامه ، فكان يتكلم
فيتلقى ابنه قيس قوله منه ، فيحفظه ويرفع صوته كي يسمعه
قومه . ومن المنتظر في مقام مثل هذا المقام أن يذكر الأنصار
سابقتهم في الدين وحسن بلائهم في الإسلام ، وأن لا يرى قبيلة من
العرب مثل هذه السابقة وهذه الصحبة ، فهذا يجعلهم دون
العرب للرسول ، فهم أحق الناس بولاية الخلافة ، وقد كان
لهذا الكلام أثر بين في الأنصار ، حتى هموا بأن يبايعوه
وقفت في الرأي ، وصمت في القول !

ولكن المهاجرين علموا بمؤتمر الأنصار ، وخطبة سعد بن
عبادة فيهم ، فما تناهى خبر هذا الاجتماع إلى أبي بكر ففزع
أشد الفزع ، فقام ومعه عمر بن الخطاب ، فخرجا مسرعين إلى
سقيفة بني ساعدة ، فدخلوا السقيفة ومعهم أبو عبيدة بن الجراح

فتولى الكلام أبو بكر ، وبين فضل المهاجرين في الإسلام .
فهم أول الناس إسلاماً ، والناس لهم فيه تبع ، وهم عشيرة
رسول الله ، وهم أوسط العرب نسباً ، ولكنه مع هذا يذكر
فضل الأنصار ، أولى إيمانهم برسول الله ونصرهم ، فهم وزراء
المهاجرين في الدين ، وإخوانهم في كتاب الله ، وشركاؤهم في
السراء والضراء .

وقد تشاح المهاجرون والأنصار على الخلافة ، قريش من
جهة ، والخزرج والأوس من جهة ثانية ، وكل فريق من
يبين حجته فيرد فريق آخر ويضعف هذه الحجة ، وكان عمر بن
الخطاب يؤيد أبا بكر في كلامه ، حتى كاد الأمر يمضي بالمهاجرين
والأنصار إلى التهديد بتحطيم الآناف بالسيوف !

ومن محاسن حظ المهاجرين في مثل هذه الحال ، والفتنة
قائمة ، والقلوب هائجة مائجة ، والأعصاب ثائرة ، أن يدب
التحاسد بين الأنصار ، فيقوم رجل منهم وهو بشير بن سعد
من سادات الخزرج ، فيرى ما اتفق عليه قومه من تأمير سعد بن
عبادة ، فيحسد سعداً على ذلك ، فيدعو الأنصار إلى التخلي
عن الخلافة لأن النبي من قريش ، وقومه أحق بميراثه وتولي

مخالفيه ، وسبق قريشا إلى مبايعة أبي بكر ، فيختلف معه
محرجا للأنصار ، حتى قال الأنصار فيهم أبو بكر .

لا شك في أن تخلف سعد مشكلا عصيبا في خلافة أبي بكر
ويمكن أنه فعلا أعظم في درء فتنة عن المسلمين ، لأن تدابير أبي بكر
خطأ أحيانا . وهذا الفصل لا شيء عن حاجة عنه تقصر القوة
مع التزام الحروب ، لأن صدر أبي بكر يضيق بسعد في عدة من
البيعة ، فهو لا يبايع حتى يرى أبا بكر وجها لوجه يكلمه في
كلمة ، ويحتفظ بمبايعته ومحبته ، وعشيرته وسيادته ،
ويجعل تمكين معه من أهله وعشيرته ، فلما كان مثل هذا
الكلام لا يسكت عنه عمر بن الخطاب ، فقد أشار على أبي بكر
بقتله وقال له : لا تدعه حتى يبايع ، فقال أبو بكر كلاما
عن لو وقع المسلمون في شر عظيم ، فقدمه على هذا الشر بشير بن
سعد فقال لأبي بكر : إنه ليس يبايع سعد حتى يقتل ، ولن
يقتلوه حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وعشيرته ، ولن يقتلهم
حتى تقتل الأوس ، فلا تفسدوا على أنفسكم أمرا قد استقام لكم
فاتركوه ، فليس تركه بضاركم ، وإنما هو رجل واحد ، فتركوه
وقبلوا مشورته .

هذا الكلام عميق الدلالة، وما ذكرت من تمحيص خبر السقيفة إلا لأصل في هذا الكلام، وفيه دلالة عظيمة على عزة النفس، وفيه سياسة مبنية على أصول محسوبة، فلو قال سعد بن عبادة وهتفت الخزرج والأوس الآخرون ثأره، فكيف تكون عاقبة المسلمين، والإسلام لا يزال في أوله؟ كيف يكون تحزب وقتال في الإسلام على أمر خلافة فيه؟ فهذا في مثل رأي بشير بن سعد سلم المسلمون من شر هذا القتال، وما يقصد بشير بن سعد بهذا الرأي عبثاً، فهو يعرف عادات العرب عامة، وقومه خاصة، في الثأر، ولكني لا أرى في هذه المعرفة شيئاً كبيراً، فإن مثل هذه العادات معروفة في العرب، بل يعرفها كل العرب في جزيرة العرب من قبل رجال من لأنه لم يخف عن الصحابة من في نفسه شيء من العمر، لأن بيعة المسلمين قد تمت، والأمر قد استقام، فاحتساب أمر صغير مثل هذا لأنه نجى المسلمين من شر عظيم، وهذا الاحتساب من وحي المعرفة النفسية، فلطف من تقبيحه في حقيقة نفسه بشير بن سعد!

أهل الردة

قد يكون صواب السياسة في بعض الأوقات سبباً في إهمال كثير من الأمور، وقد يكون في أوقات نادرة سبباً في الاهتمام بهذا الأمر. وفي أخبار السقيفة التي قدمنا شرحها كان السكوت عن سعد بن عبادة الذي تخلف عن بيعة أبي بكر حكمة سياسية مبنية على معرفة نفسية. ولم يكن السكوت عن أهل الردة نفسه كالسكوت عن ابن عبادة. وهذه خلاصة الردة:

لما تمت البيعة لأبي بكر واستقام له الأمر اضطرب الموقف بالبادية، وارتدت العرب عن الإسلام، فغضب أبو بكر وهم بحرب من ارتد وقعد، فقالوا: نصلي ولا نؤدي الزكاة. فقال الناس: أنقاتل قوماً صحبوا رسول الله، وإن العهد حديث بالعرب كثير، ونحن شرذمة قليلون، لا طاقة لنا بهم. أما قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله. فقال أبو بكر:

هذا من حقها، لا بد من القتال. فقال الناس لعمر: الحق به فكلمه، لعله يرجع عن رأيه هذا، فيقبل منهم الصلاة ويعفيهم من الزكاة، فخلا به عمر حتى راجعه، فقال: والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه لجاهدتهم، ولو لم أجد أحدا أقاتلهم به لقاتلتهم وحدي حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين، وقد سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فوالله الذي لا إله إلا هو لا أقصر دونهن. فضرب منهم من قدر على قتله حتى دخل الناس في الإسلام طوعا وكرها، فحمدوا رأيه وعرفوا فضله. قال أبو رجاء العطاردي: رأيت الناس مجتمعين، وعمر يقبل رأس أبي بكر ويقول: أنا فداؤك، لولا أنت لهلكنا، فحمدوا رأيه في قتال أهل الردة.

***

هذا ما رواه ابن قتيبة في صفة حرب أهل الردة، وقد كان يجب علي التبسط في هذه الأخبار لأظهر قدر الحوادث التي حدثت في الإسلام، ولكن هذا التبسط من خصائص التاريخ، ولست مؤرخا في كتابي هذا. وقد اطلعت على ما كتبه بعض المؤرخين

[illegible]

لعلي: ما ترى يا أبا الحسن أسير أم أبعث؟ قال: سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له، فخرج من عنده، ودعا العباس في جلّ مشيخة قريش وشاورهم فقالوا: أقم وابعث غيرك، ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة، وخرجوا فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف فاستشاره، فقال عبد الرحمن: فديتك بأبي وأمي، أقم وابعث، فإنه إن هزم جيشك فليس كهزيمتك، وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً، ثم خرج فدخل عثمان عليه، فقال له: يا أبا عبد الله أشر علي أسير أم أبعث؟ فقال عثمان: أقم يا أمير المؤمنين، وابعث الجيوش فإنه لا آمن إن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الإسلام ولكن ابعث الجيوش ودارك بعضها على بعض.

هذا خبر نقلته عن المسعودي مع شيء يسير من حذف ما لا صلة له بالموضوع لدى الخوض فيه، وجوهر الأمر في هذا الخبر الاستشارات التي استشارها عمر، وقد كان في خاصة المستشارين وجه الصواب، فلم ينحرف علي عن الحق حين قال له: سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له، ولم ينحرف العباس عن هذا الحق حين قال له: أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة،

ولكن بعض شيوخ قريش نظروا إلى الأمر من وجهة أخرى، وربما كان نظرهم أبعد أفقاً، فقد كان عمر يخشى عودة الأحداث التي حدثت بعد وفاة النبي، فخافوا أن تحدث هذه الأحداث مرة ثانية، فقد ارتدت العرب بعد استخلاف أبي بكر بعشرة أيام، فخافوا أن ترتد العرب إذا قتل عمر في حرب الفرس، فخاف عبد الرحمن بن عوف، إذا قتل عمر أن يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً. وخاف عثمان بن عفان إذا أبى على عمر أن ترجع العرب عن الإسلام. هذه سياسة موافقة للقواعد السياسية الموفقة كلها، فلم يبق عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ما أتيا به من الآراء عبثاً، ولكنهما أتيا بتجربة ماضية فاتعظا بهذه التجربة فلو قتل عمر في حرب الفرس لارتد العرب مرة ثانية، وربما كانت حرب أهل الردة في هذه المرة أشد على المسلمين من الأولى، فقد يهون أمر الإسلام ويكثر الجرأة على الرجوع عنه، لأن الإسلام حديث النشأة، ولم يثبت عليه من رسخ ما يكفي لتأصيله في القلوب. وقد ذكر المسعودي في أخبار علي بن أبي طالب قد ثبت نحوه في بعض حروبه بعد أن أوطأهم ومضى الحارث بن راشد الناجي في ثلاثمائة من الناس وارتدوا إلى دين النصرانية.

الشورى

ما هي مظاهر العمل [illegible] الشورى؟

مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذي قبض فيه [illegible] [illegible] المسلمين [illegible] [illegible] السقيفة [illegible] [illegible] حتى تمت البيعة لأبي بكر.

ثم مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه، واستخلف على المسلمين عمر بن الخطاب.

ثم طعن عمر بن الخطاب [illegible] [illegible] عليهم، وكيف كانت الشورى في هذا الاستخلاف؟

لم يكن استخلاف عمر [illegible] [illegible] المسلمين [illegible] [illegible]

إذا استخلف فقد استخلف من هو خير منه ، يعني أبا بكر ،
وإن ترك الأمر فقد تركه من هو خير منه ، يعني النبي ، ثم رأى
أنه لو أدرك أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفه وولاه ، ولو أدرك
معاذ بن جبل لاستخلفه ، ولو أدرك سالما مولى أبي حذيفة لولاه ، وفي هذا
كله كثير من الحيرة ، ثم رأى في علي دعابة وفكاهة ، وفي طلحة
زهوا ونخوة ، وفي عبد الرحمن بن عوف صلاحا مع ضعف ، ورأى
أن سعدا صاحب مقنب وقتال ، لا يقوم بتربية ولا حمل أمر ،
ورأى أن الزبير شكس ، مؤمن الرضى ، كافر الغضب ، شحيح ،
ورأى أن عثمان لو ولي الخلافة لحمل قومه بني أبي معيط على رقاب
الناس ، ثم خشي أن يدعهم على غير بينة ، ثم صحت عزيمته
على أن يستخلف النفر الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض ،
فجعل الخلافة شورى بين هؤلاء الستة من المهاجرين الأولين ،
وهم : علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد
بن أبي وقاص . ومنهم من يحدث أن سعدا لم يكن في الشورى ،
وأن عبد الله بن عمر قد أدخل فيهم على أنه خارج من الخلافة
وليس له إلا الاختيار .

كل هذا يدل على الارتباك ، ولقد كانت هذه الطريقة

ميلاً إلى الخصومة ، فقد نشط أصحاب الشورى على الخلافة وأخروا إبرام الأمر ورجا كل واحد منهم أن يكون خليفة ، حتى إن أبا طلحة يقول : كنت أحرص منهم خلاف هذا الحرص ، فقد كنت أخاف أن يتدافعوه ، فقد طال تناجي القوم وتشاطرهم ، ودفع كل واحد منهم صاحبه عنه وكاد يؤدي هذا الأمر إلى الفتنة ، فقد تطلع الناس إلى معرفة خليفتهم وإمامهم ، واحتبس من فيها لانتظار ذلك من أهل البلدان إلى الرجوع إلى أوطانهم .

ولسنا ندري ما الذي حمل سيدنا عمر على الوضع في هذا الارتباك ، وقد كان قادراً على أن يستخلف أصلح القوم ، وهو يعرفهم واحداً واحداً ، ويعرف عيوبهم وحسناتهم ، ولكنه عدل عن ذلك فقد عمد إلى التجربة في الكلام قلت : خفف التبعة عن نفسه ، فجعل الأمر شورى بين جماعة كل واحد منهم يريد الخلافة لنفسه مخالفاً للقواعد العقلية والسياسية ، ولقد أنقذ الله المسلمين من فتنة الشورى وكانوا في غنى عنها لو حزم عمر .

لاشك في أن انتخاب الرعية لرعاتها أو الأمة لرجال الحكم

لم على تغيير هذه العنصر [illegible] هو [illegible] وصل اليه [illegible]
من [illegible]
[illegible]
في [illegible] المسلمين شورى بين
[illegible] على [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] حسين [illegible]
[illegible]
[illegible] المسلمين [illegible]
[illegible]
[illegible] صمت [illegible]
[illegible]
[illegible] على [illegible]
[illegible] أمير المؤمنين [illegible]
المسلمين ولا [illegible] الشورى [illegible] عمر [illegible]
وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين

كله ولو كره المشركون ، فعمل بما أمر الله به ثم قبضه الله إليه وقدم أبا بكر للصلاة ، فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر دينهم ، فعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار بسيرته حتى قبضه الله واستخلف عمر ، فعمل بمثل سيرته ، ثم جعلها شورى بين ستة نفر ، فلم يكن أحد منهم إلا رجاها لنفسه ، ورجاها له قومه وتطلعت إلى ذلك نفسه ، ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف .

هذا هو رأي محمر ، فالشورى عقدة ناشبة حتى الآن من عهده ، ولا أرى حرجاً على الموضوع إذ قلت إن مشكلة الحياة النيابية في عصرنا هذا ، وهي شبيهة بأمر الشورى في عهد عمر بن الخطاب ، لاتزال معضلة لم نتمكن من حلها بعد ، فقد ثار على النظام النيابي في أوربة بعض المفكرين ، ورأوا أن خلل الأمر في إسبانيا وطائفة من أمم الغرب إنما هو النظام النيابي نفسه ، ولا نزال في الشرق نعاني مفاسد هذا النظام الذي لم يتكامل ، فلا نجد أن الحياة النيابية في بلادنا تحرم هذه البلاد في كثير من الأحيان الانتفاع بعبقرية غير قليل من الساسة والفلاسفة

والأدباء ومن هم فى هذه الطبقات المستنيرة ، فلا يشتركون فى
حكم الأمة ، ولا يرجع إلى رأيهم فى سياستها . وذلك لأنهم يبعدون
عن الميادين الانتخابية ولا يخوضون معمعتها الوعرة ، إما من باب
الحرص على كراماتهم لأنهم يترفعون عن هذه الأحقاد الحزبية
التى تتأجج نيرانها فى أثناء الانتخابات ، وإما من باب النفرة من
مظاهر الخداع ، فإن عقولهم تملى على الحقيقة وحدها فتردعهم
عن استعمال الأساليب المبنية على شىء آخر غير الحقيقة مما
يستعمل فى غضون الانتخابات ، فإن التجاءهم إلى خطط مشهورة
فى الحياة النيابية يلحق بهم خيبة فى الميادين الانتخابية فالظفر
بينهم ، ثم مقتضى معارك الانتخاب وأدواتها لأغراض تتلاشى
والحقيقة من ورائها ... فيوجب الاحتراز إنهم ما يترفع عنه العلماء
والفلاسفة والأدباء فلا يرتفع لهم صوت فى المجالس النيابية
ولا يكون لآرائهم السديدة تأثير

فإذا كان أمر الشورى فى أيامنا هذه لا يزال مفتقراً إلى كثير
من الإصلاح حتى يكون كاملا نافعاً فكيف كان هذا الأمر فى
أيام عمر بن الخطاب ؟ فقد ضرب معاوية كل الأمثلة إذ قال
إن الشورى هى التى شتت بين المسلمين وفرقت أهواءهم ، وهى

التى لاتزال تشتت بين بلادنا وتفرق أهواء أهل البلاد . ولقد سبقت الإشارة إلى أن الشورى بما هى شبيهة بالحياة النيابية فى هذا العصر ، وأظن أن القارئ يدرك أنى لا أطلق هذا القول إطلاقا ، فإن الفرق بين ستة رجال يجتمعون لينتخبوا من بينهم خليفة ، وبين أمة تجتمع بحذافيرها لتنتخب نوابا ورجال حكومة وصحيح جداً ، إنه فرق كبير ، ولكنى لجأت إلى هذه المقارنة لأن المحذور فى الأمرين متقارب ، فالشورى فى القديم كانت غلطة نشبت فتن عنها شتتت المسلمين وفرقة أهوائهم ، والحياة النيابية فى الحديث ينشأ عنها فى بعض الأمم سوء التصرف فى السياسة والإدارة والخروج على القوانين والأحقاد وغير ذلك مما لا محل إلى التبسط فيه . على أن قليلا من تعديل النظام النيابى فى فريق من الشعوب يعود بهذا النظام إلى محاسن عواقبه فى الأمم .

علي بن أبي طالب

إذا كانت الحاجة إلى معرفة الأمور النفسية في سيرة أحد
من العظماء واجبة، فقد تكون هذه الحاجة مقدمة [illegible] في سيرة
علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، الذي كان يرى أن له حقاً في الخلافة،
فصرح بهذا الحق ولم يجحده، [illegible] عن أبي بكر وعمر وعثمان
ما يقول فيهم، ولم يكتم أمر رأيه، فقد مضى رسول الله صلى
الله عليه وسلم، [illegible]، وقد [illegible] على [illegible]
ما كان يلقى في روعه ولا يخطر على باله أن العرب تعدل بهذا
الأمر عنه، [illegible] إلا انثيال الناس على أبي بكر [illegible]
بيته، [illegible]، ورأى أنه أحق منه بمحمد في الأمر [illegible]
الأمور عليه، فلبث بذلك ما شاء الله حتى رأى راجعة من الناس
رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد [illegible] عليه
السلام، فخشي إن لم ينصر الإسلام وأهله أن يرى في الإسلام
ثلماً وهدماً تكون المصيبة به عليه أعظم من فوت ولاية أمر الناس

التي هي متقمصة به قبلاً ، ثم يرى ما كان منهم كما يرون أصحابه . ومضى بعد ذلك إلى أبي بكر فبايعه ونصح معه في تلك الأحداث حتى زهق الباطل وكانت كلمة الله هي العليا ، فتولى أبو بكر تلك الأمور فيسر وسدد وقارب واقتصد ، فصحبته ناصحاً وأطعته فيما أطاع الله فيه مجتهداً .

هذا شيء من كلام كتبه علي إلى أهل العراق ، ووددت لو نستطيع أن نذكر الكلام كله ، على أن في الإشارة إلى هذا القدر منه دليلاً واضحاً على تصور علي حقه في الخلافة ، وفي بقية كلامه دليل واضح ، فإن الذي يعرض في طلب الخلافة لقوم من الناس عادوه وحرصوا عليه ؛ ثم حرص على أن يرد خلافت ميراث النبي وحقه ، وأن يدخلها الذي يعمله ، ويتصرفون بها في دونه ، لأنه إلى مستعين بك على قريش ، فإنهم قطعوا رحمي وصغروا عظيم منزلتي ، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به منهم . ثم قالوا : اصبر كمداً وعش متأسفاً . إن الذي يقول مثل هذا القول لا يعرف في السياسة إلا الصراحة ، فسمت نفسه في هذه الطاعة في حياة ، وثقة في مدخل ومخرج . ومن كان هذا شأنه فيها ، فقصده فيها حرج ، إذ لكن عنده

بالأمور العملية على قدر صراحته، ولذا لم تنجح سياسته النجح كله، وهذا معناه أنه لم يخطر على باله أن طلب الحقوق يستلزم كثيراً من حسن المداورة والمصادرة. فليس كل صاحب حق في هذه الدنيا يواصل إلى حقه على مثل هذه السبيل.

ومن نص كلامه: لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة. لأني محق. فهذا كلام رجل لا يبالي بأساليب السياسة في طلب الحق، ولا يهتم بروح الجماهير، فكثرة الناس في رأيه وقلتهم سواء. وليس الأمر كذلك في قواعد السياسة، فإن للكثرة فيها شأناً، ومن يقل عنده الرجال فيه عجز من دون غيره، وفي معظم الأحوال كثرة الناس حول رئيس من رؤسائهم عزة، وقلتهم وحشة، وهذه أمور يصعب على سيدنا علي الاعتراف بها حتى قلت هذه الصعوبة الناس حوله.

وكما صعب عليه إدراك أسرار السياسة من حيث الكثرة والقلة فيها، فقد صعب عليه إدراك هذه الأسرار من حيث العمل في الجماعات، فقام رجل من أصحابه فقال له: يا أمير المؤمنين أعط هؤلاء هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي ممن يتخوف خلافه على الناس وفراقه، وقد

استقام لك ما تريد عدت إلى أحسن مما كنت عليه من التقسيم.
فقال علي: تأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه
من الإسلام، فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم!

ثم يدرك نصر الله عظمته، أن الناس عامة قد فهموا خطأه
هذه الدنيا، فكان يمر عليه أن يعتقد أن الناس يدورون كيف
دارت مع حبهم ومنافعهم، ويعاملهم كما يجب أن يعاملهم رجل
السياسة وإنما عاملهم كما يعاملهم رجل الأخلاق، فكان من
عواقب هذه السياسة شكواه منهم في كل كلام وفي كل خطبة.
وعلى كل حال إذا فات بعضهم من معرفة نفوس البشر على حقائقها
ومن قربه للسياسة بهذه المعرفة في بال غيره من غير هذه الفضائل

على أننا نظلم عليًّا إذا جردناه تجريدًا من علم النفس، ولا
بأس أن أذكر بعض أمور تدل على معرفة النفوس.

لما رفعت المصاحف على الرماح في وقعة صفين، وسنبين هذه
الخديعة في الفصل الآتي، رفعها أهل الشام يرجون أن يكف عنهم
الناس حتى يخففوا عنهم من شدة القتال، وقال أهل العراق
لعلي: قد أعطاك معاوية الحق، دعاك إلى كتاب الله فاقبل
منه، فقال علي: ويحكم إنما رفعوها لأنكم تعلمون، ولا يعملون

ـه، ومعرفتهم بكم لا حدسة ... ومكيدة .

فهذا كلام رجل لا يجهل عقل الناس وحديثهم، ومما يدل على ذلك خطبته لأهل العراق بعد أن خدعه من أمر أبي موسى وعمرو بن العاص، فقد قال لهم: إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة ونهيتكم عنها فأبيتم إلا عصياني، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علي؟ والله إني لأعرف من حملكم على خلافي والترك لأمري، ولو أشاء أخذه لفعلت، ولكن الله من ورائه.

فأنت إذا نظرت عليا بن أبي طالب دنياه من معرفة الناس ودخائلهم، وهذا أمر آخر يدل على هذه المعرفة، فإن هذه ثلاثة من الخوارج على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، كما هو معروف في التاريخ، ولكن معاوية بلغه أن في الكوفة شيعة من شيعته، وأن أكثر الناس يقول في ذلك حتى بلغ عليا فقال في مجلسه: قد أكثرتم من نعي معاوية، والله ما مات ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمي، وإنما أراد ابن آكلة الأكباد أن يعلم ذلك مني، فبعث من يشيع ذلك فيكم ليعلم ويتيقن ما عندي فيه، وما يكون من أمره في المستقبل من الأمر.

ومن هنا نستطيع أن نهتدي إلى معرفة هذه الروح التي امتلكته

في سياسة عدوه، إلا أنه كان يبدي الحظ من الاستفادة من
معرفة الفتنة في سياسة. ذكر ابن قتيبة أن الزبير وطلحة
أتيا عليا [illegible] فقالا: هل تدري على ما بايعناك يا أمير
المؤمنين؟ قال علي: نعم، على السمع والطاعة وعلى ما بايعتم عليه
أبا بكر وعمر وعثمان. فقالا: لا، ولكنا بايعناك على أنا شريكاك
في الأمر. قال علي: لا، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة
والعون على العجز والأود. وكان الزبير لا يشك في ولاية
العراق، وطلحة في اليمن، فلما استبان لهما أن عليا غير
موليهما شيئا أظهرا الشكاة فتكلم الزبير في ملأ من قريش،
فقال: هذا جزاؤنا من علي، قمنا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه
الذنب وسببنا له القتل وهو جالس في بيته وكفي الأمر، فلما نال
بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا. وقال طلحة: ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة
من أهل الشورى كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا
ومنعنا ما في يده، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا. فانتهى قولهما
إلى علي، فدعا عبد الله بن عباس، وكان استوزره، فقال له:
بلغك قول هذين الرجلين؟ قال: نعم، بلى [illegible]. قال:
ترى؟ قال: أرى أنهما أحبا الولاية، فول البصرة الزبير، وول

طلحة الكوفة فإنهما ليسا بأقرب بك من الوليد وابن عامر من عثمان، فضحك علي ثم قال: ويحك إن العراقين بهما الرجال والأموال، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع ويضربا الضعيف بالبلاء، ويقويا على القوي بالسلطان، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام، ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي.

قد يجد المفكر في أقوال الرجلين: علي وابن عباس. أما عبد الله بن عباس فلا شك في أنه كان من الناصحين لعلي، وفي توليتهما الكوفة والبصرة ما يكفي علياً شرهما، والدليل على ذلك أنهما لما قطع أملهما من الولاية توجها نحو البصرة وأظهرا الخلاف وحركا الفتنة وتبعهما على ذلك خلق كثير، وأما علي فقد كان على حق في سوء ظنه بهما، فإنهما لو ملكا رقاب الناس طمعا في شيء بعد ذلك، ولكنه كان يستطيع أن يجوعهما بتوليتهما، فلا أقل من أن يبقى فيهما طمع في استمالة الناس.

ومن هذا الشكل ما رواه المسعودي، فقد لقي المغيرة بن شعبة علياً فقال له: إن لك حق الطاعة والنصيحة، وإن الرأي اليوم تحوز به ما في غد، وإن التضييع اليوم تضيع به ما في غد، أقرر معاوية

على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت. فقال: حتى أنظر. فخرج إليه وعاد من الغد، فقال: إني أشرت عليك بالأمس برأي وتعقبته، وإنما الرأي أن تعاجلهم بالنزع فتعرف السامع من غيره، ويستقبل أمرك. ثم خرج، فتلقاه ابن عباس خارجاً وهو داخل، فلما انتهى إلى علي قال: رأيت المغيرة خارجاً من عندك، ففيم جاءك؟ قال: جاءني أمس بكيت وكيت وجاءني اليوم بذيت وذيت. فقال: أما أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشك.

لا شك في أن المغيرة قد نصح عليًّا في المرة الأولى، وقد شعر بهذا النصح ابن عباس، وما تردد علي في السمع من المغيرة لما كان ينبغي له أن يتردد في السمع من ابن عباس. وما إقرار العمال على أعمالهم في بدء الأمر ريثما يتوثق علي من ضبطه إلا تدبير إداري على مصطلح هذا العصر، وخاصة أن عليًّا حديث العهد بالخلافة، وخلافته محفوفة بالمكاره، ولو أقر العمال على أعمالهم لاطمأنت قلوبهم بعض الاطمئنان، فلا تحدثهم هذه النفوس بشيء من الثورة عليه، حتى إذا تكاملت هذه الطمأنينة واشتد

سلطان على فضل من أراد ، ولم يخطئ المعيرة إليه أحد دهاة
العرب ، فهو يعرف مقدار الرجال ، وبصيرته تدل دليلا قاطعا على
هذه المعرفة ، وقد أيد هذا الصحيح رأى ابن عباس ، ولكن غاب
تهوين آرائهم ، فوقع ما وقع ، ولا محل للخوض فيه .
وإنما الذي وقع كان نتيجة عواطف نفسية غطت سيدنا على

خديعة المصاحف

لابد من معرفة الأمور العجيبة في السياسة أن هذه المعركة كانت في بعض الأحيان سبباً في إنقاذ من هزيمة فيها ضياع الملك كما وقع في حرب صفين ، وفي غنى عن ذكر تفصيل هذه الحرب ، ولكني أرى لا أجد لي مندوحة عن ذكر ما هو الأمر الأخير فيها .

ذكر ابن قتيبة أن أهل العسكرين ، عسكر علي وعسكر معاوية ، نالهم شدة من الألم ، وبدا على أصحابه ، وضجوا على راياتهم ومصافهم ، فلما رآهم معاوية وقد برزوا للقتال قال لعمرو بن العاص : يا عمرو ! ألم تزعم أنك ما وقعت في أمر قط إلا وخرجت منه ، قال : بلى ، قال : فلا تخرج مما ترى ؟ قال ، والله لأدعونهم إن شئت إلى أمر أفرق به جمعهم ، ويزداد جمعك إليك اجتماعا ، إن أعطوكه اختلفوا ، وإن منعوكه اختلفوا ، قال معاوية : وما ذاك ؟ قال عمرو : تأمر بالمصاحف فترفع ، ثم

تدعوهم إلى ما فيه ، فوالله إن قبله لتفترقن عنه جماعته ، وإن ردّه يكفره صحبه ، فدعا معاوية بالمصحف ثم دعا رجلا من أصحابه يقال له ابن هند ، فنشره بين الصفين ، ثم نادى : الله الله في دمائنا ودمائكم البقية ، بيننا وبينكم كتاب الله ، فلما سمع الناس ذلك ثاروا إلى علي فقالوا : قد أعطاك معاوية الحق ودعاك إلى كتاب الله فاقبل منه ، ورفع صاحب معاوية المصحف وهو يقول : بيننا وبينكم هذا المصحف ، ثم تلا : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » ثم نادى : من لعرض ؟ من بعده ! وفي رواية المسعودي : من لثغور الشام بعد أهل الشام ! ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ! ومن لجهاد الروم ! ومن للترك ومن للكفار ! ورفع في معسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف ، فقال الأشعث لعلي : والله لا أرى هذه أبداً ورضي معك أو نقتل معك ، وتابعه أشراف أهل اليمن وركنوا إلى الصلح وكرهوا القتال ، ثم كان أمر الحكمين والتحكيم مما هو مشهور .

❊ ❊ ❊

يقول بعض رجال التاريخ : هذه خديعة المصاحف ، لا شك في أنها خديعة ، ولكنها خديعة مؤسسة على معرفة عميقة ، وهذا هو الوجه الذي يهمنا فيها ، فإن الذي فطن لها كان عارفاً بنفوس القوم لمعرفة كاملة ، فقد كان مع على في حرب صفين صحابة من بدر ، وغيرهم من أهل حرب والأنصار ، وهم من ذوي الدين ، فإنهم إذا رأوا المصاحف مرفوعة على الرماح عرفوا هذا الأمر ، فذكروا الله وخافوه ، فعمرو بن العاص كان يعلم هذا جيداً منهم ، وعقله هو الذي فتق له حيلة المصاحف ، ومن جهة ثانية فإن القوم ملوا القتال وسئموه ، فقد وردت في كتب التاريخ أمور كثيرة قيمة هي تدل على هذا الملل

ولقد كثر القتل في العسكرين ، حتى ضجر الناس من القتال ، ولا ريب في أن عمرو بن العاص قد شعر بهذا الضجر من قبل قومه ، واستبد به ، ولكنه كان ينظر إلى الأمر من ناحيتين حين دبرت بديهته خديعة المصاحف ، وعلى كل حال فإن هذه الخديعة التي أوحى بها صاحبها ، إنما علم العاص كان من حقن دماء المسلمين ، وخديعة فيها معنى حرب ومعنى دماء ، فهي خديعة خير .

معاوية بن أبي سفيان

ما أظن أن أحداً من العرب في عصره تمكن من معرفة النفوس تمكن معاوية من هذه المعرفة ، فلا يخفى عليه أمر من أمور الأفراد والجماعات والدول ، ولا تشكل عليه طبائع أهل البلاد ، وهذا التعمق في معرفة النفوس هو الذي مهد لسياسته السبيل في طول عهده ، فليس بالأمر الهين أن يقضي عشرين سنة عاملا ، وعشرين سنة خليفة ، وقد استطاع بفضل حظه من علم النفس أن يجتنب كثيراً من الشر ، فهو يعرف من يحيط به من الناس ، ويعرف كيف يخاطبهم ويعاملهم ، ويعلم طبائع البلاد التي انبسط سلطانه عليها ، فسار في هذه البلاد على قدر علمه بطبائعها ، ولو شئت أن أخوض في الأخبار الصحيحة والكثيرة التي تدل على وفور نصيبه من علم النفس لامتد بي نفس الكلام ، وحسبي تنبيهاً على أنه عبقري عظيم في القلوب فيقرأ ما يحس به كل قلب منهم ، وأن له أذناً تسمع من تسره

هذه القلوب، فلا يسأل أحدًا سؤالًا إلا عرف من قوله في جوابه ما يرى أنه في هذا الجواب من نصح أو غش، فلا يأمن الغش من بين يديه ولا من خلفه، وبذلك دخل السياسة هذا المدخل من معرفة العصبية فتقدم به أموره على ما يحب ويشتهي، ولم يقصر معاوية على التجارب وحدها في سياسته العصبية، فقد كان يسهر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها، وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها، ثم كان يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، فلم يرث معاوية ميراث الدهاء، ولكنه أدرك بهذا كله أمورًا كثيرة، في مقدمتها التجربة والعلم، وعلى أن ضرب الأمثال من ذلك سياسته هو الذي يعرف صاحبه من العيون.

ومن ثم كان دهاؤه يبادر إلى معرفة ما تضمره القلوب في أوضاعها، فقد دعا مروان بن الحكم فقال له: أشر علي في الحسين، فقال

مروان : نخرجه معك إلى الشام ، فنقطعه عن أهل العراق ، وتقطعهم عنه ، فقال معاوية : أردتَ والله أن تستريح منه وتبتلي به ، فإن صبرت عليه صبرت على ما أكره ، وإن أسأت إليه كنت قد قطعت رحمه . فأقامه .

أفيرى القارئ الكريم كيف يدرك معاوية سرار الغموض من ظواهر الكلام ، وهذا الإدراك هو الذي يجمّ من غش أهل الغش وإذا قدر رجل السياسة على السلامة من غش أهل الغش قدر على السلامة من ورطات كثيرة

ومما كان عليه معاوية من التعقل والانخداع ، ذكر صاحب الأغاني أن عبد الله بن الزبير الشاعر لما هرب من عبد الرحمن بن الحكم إلى معاوية أحرق عبد الرحمن داره ، فتظلم منه ، فقال : أحرق لي دارًا فيها مائة ألف درهم ، فقال معاوية : ما أعلم بالكوفة دارًا تحترق عليها هذا القدر ، فمن يعرف صحة ما ادعيت ، قال : هذا ابن مدرك بن الحر ودحصر وهو شاهد ، فقال معاوية لابن مدرك ما عندك في هذا ، قال : إنى لم أكن معه على داره وماله ، ولكني لما دخلت الكوفة وأردت الخروج عنها أعطاني عشرين ألف درهم وسألني أن أبتاع له بها صنج

من البصرة ، فعلت . فقال معاوية : إن داراً اشترى له بـ
بعشرين ألف درهم لحقيقة أن يكون من زعمتم منه ألف درهم
وأمر لهما به ، فلما خرجا أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم :
أي الشيخين عندكم أكذب ! والله إني لأعرف داره ، وما هي
إلا خصاص قصب . ولكنهم يقولون فنسمع ، ويخدعونا
فنخدع . فجعلوا يعجبون منه .

ليس في كذب هذين الشيخين : الشاعر عبد الله بن الزبير
والمنذر بن الجارود شيء من العجب ، ولا في فطنة معاوية هذا
الكذب شيء من البراعة ، ولكن البراعة كل البراعة في
استعداد معاوية لسماع الكذب وهو عالم به ، وفي انخداعه وهو
شاعر بالخديعة ، حتى ظن الشيخان أنه صدقهما وأنهما غشاه ،
وهذا أسلوب من أساليب معاوية في سياسة الناس ، يعلم
بالكذبة فيعرف مجرى الصدق ، ويعلم بالخديعة فيجعل محل الشيء ،
يتجاهل حين التجاهل ، وينخدع حين الانخداع ، بحسب مقتضى
الحال ، ولو لم يفعل هذا وشبهه لما وجد مدخلا على قلوب
الناس ، وتمكناً من هذه القلوب . فليس في كل وقت يجوز
لخليفة مثل معاوية تكذيب اللاجئين إليه . فقد يضطر في بعض

الأخذ إلى الدروب في حرب فكثير الناس وحببهم وقد حثهم
ويجرحهم حتى تم نصيبه له ، وبكل اهتمامه إليه ، ولولا
هذا الأدب لاشتدت وحشته منه ، وهذا مذهب لا يجهله إلا
معاوية أو من كان مثل معاوية في سياسة الناس

ومن هذا نحكي حكاية قريبة في مروج الذهب في خلال كلام
المسعودي على حسن الاستماع إلى الملوك ، فقد كان يزيد بن
شجرة من سادات قوم معاوية ، وكان آثر الناس عنده ، وفي حديث
تالد ، ومعاوية يقص عليه ، يحدثه عما كان بين بني مخزوم
وبينهم من قريش ، وما جرى في بعث حرب خفي من الناس ،
وكان معاوية مستغرقاً في حديثه ، فبينما هو يحدثه ويزيد بن
شجرة ، يزيد مقبل عليه وقد استخفته لذة الحديث والاستماع ،
إذ أصابت جبين يزيد بن شجرة حجر عائر ، فأدمته فجعلت الدماء
تسيل على وجهه ولحيته وثوبه وعنه ذاك ، وهو لا يتغير عما كان
عليه من الاستماع ، فقال له معاوية : لله أنت يا ابن شجرة ما
ترى ما نزل بك ؟ قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا
دم يسيل على ثوبك ، فقال : أعتق ما أملك إن كان حديث
أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي ، فما شعرت

شيء لم يحدث حتى يرى عتبة أمير المؤمنين ، فقال معاوية
لقد علمت من حملك في أمر من العطاء ، وخرجت من عطاء
نساء أمير المؤمنين ، لأحسن ممن حضر معك المسلمين ، ثم أمر له وهو
في سيره بخمسين ألف درهم وزاده في عطائه ، عن ابن له ثم
وجعله بين جلده وثوبه .

وقد قال بعض أهل المعرفة بالأدب في هذا الحديث أقوالاً ،
فمنهم من رأى أن يزيد بن شجرة قد خدع معاوية بكلامه حتى
انخدع فكان أعطى من معاوية ، ومنهم من رأى أن يزيد بن شجرة
كان بليداً في كلامه ، ولا يستحق هذا العطاء من قبل معاوية
على مثل هذه البلادة ، وعندي أن يزيد بن شجرة أراد بمثل هذا
الكلام أن يدخل السرور على قلب معاوية ، وقد كانت حركته
تصدر عن شيء غير قليل من حسن الأدب ، ولكن انخداع
معاوية يصدر عن فطنة إياه

وكما كان معاوية عالماً بنفوس الأفراد كان عالماً بنفوس الجماعات
وحاجاتهم ومطالبهم ، فقد خبر بني هاشم ثم خبر ، حتى عرف
ظواهرهم وبواطنهم ، ووقف على عيوبهم ونقائصهم ، فكانت
هذه المعرفة تكون عوناً له على نجاح سياسته

بعث معاوية في سنة أربعين بسر بن أرطاة إلى المدينة ومكة واليمن يتعقب شيعة علي ويدعو الناس إلى طاعته ، ويوطد له الأمر، فلما وصل إلى اليمن كان بها عبيد الله بن العباس فخرج عنها ولحق بعلي ، وخلف ابنيه عبد الرحمن وقثم عند أمهما جويرية بنت قارظ الكنانية ، فقتلهما وقتل معهما خالا لهما من ثقيف ، وقد تكلم أبو الفرج الأصبهاني على قتل بسر هذين الصبيين فقال:

لما كانت الجماعة واستقر الأمر على معاوية دخل عليه عبيد الله بن العباس وعنده بسر بن أرطاة ، فقال له : أنت قاتل الصبيين أيها الشيخ ؟ قال بسر: نعم أنا قاتلهما ، فقال عبيد الله : أما والله لوددت أن الأرض كانت أنبتتني عندك ، فقال بسر: فقد أنبتتك الآن عندي، فقال عبيد الله : ألا سيف ! فقال له بسر : هاك سيفي ! فلما أهوى عبيد الله إلى السيف يتناوله أخذه معاوية ثم قال لبسر : أخزاك الله شيخاً ، قد كبرت وذهب عقلك ، وذاك رجل من بني هاشم قد وترته وقتلت ابنيه ، تدفع إليه سيفك ؟ إنك لغافل عن قلوب بني هاشم ، والله لو تمكن منه لبدأ بي قبلك ! فقال عبيد الله : أجل والله ، وكنت أثني به .

لا يتسع المجال للخوض في حرب علي ومعاوية ، فقد جرى

في هذه حرب كثير من الدماء، حتى استقر الملك لمعاوية، ومن
الأمر العسير أن يرضى بنو هاشم عن معاوية بعد أن غلبهم على
ذلك، فليس في قلوبهم شيء من العصبية إذا رسخت فيها
كراهية معاوية، إلا أن المهم في هذا كله أن معاوية لم يغفل عن
هذه القلوب التي لا تنسى ما فاتها، ولم تخدعه منها ظواهر ولا
باطن، وقد أدت معرفته بهذه الظواهر والبواطن إلى حفظ حياته،
وهو تمكن عينه في الناس من حوله صاحب بصيرة تبقى على
بصره ولا على معاوية، وفي مقدمة هذا المقام ما أوتي العيون
التي تتطلع إلى القلوب فتنزع منها أسرارها، وهو لا يكن لمعاوية
عين تنفذ إلى غور معظم القلوب وحكمته ورقته من حلاوة على
الاستحقاق وحب موفور لدهقنة حياته.

وكان هذا الخبر عن معرفة معاوية بقلوب بني هاشم فقد
يدل الحديث الآتي على معرفته بسمتهم، قال ابن عبد ربه: بينما
معاوية بن أبي سفيان جالس في صحابته إذ قيل له: الحسن بالباب،
فقال معاوية: إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه، فقال له مروان
ابن الحكم: ائذن له فإني أسأله عما ليس عنده فيه جواب، فقال
معاوية: لا تفعل فإنهم قوم قد ألهموا الكلام، وأذن له، فلما

ذهب وجهك فقال له مروان : أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن ويقال إن ذلك من الخرق ، فقال الحسن : ليس كما بلغك ، ولكنا معشر بني هاشم أفواهنا عذبة شفاهنا ، فنساؤنا يقبلن علينا بأنفاسهن وقبلهن ، وأنتم معشر بني أمية فيكم بخر شديد ، فنساؤكم يصرفن أفواههن وأنفاسهن عنكم إلى أصداغكم ، فإنما يشيب منكم موضع العذار من أجل ذلك ، ثم قال له مروان قولاً خشناً وشتمه من حسن جواب الحسن حتى غضب معاوية وقال : قد كنت أخبرتكم فأبيتم حتى سمعتم ما أظلم عليكم بيتكم وأفسد عليكم مجلسكم

وقد كانت معرفة معاوية بحدود الأمر والعصبية تجنبه كثيراً من الشر ، وهذه المعرفة توقعه في ورطات لا تخرج منه وإن كان عليه إسرار لأمر فيه من عمله إسرار مثل الأبهة والمخترعات . قدم الشأم عمر بن الخطاب قدم على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار ، فتلقاهما معاوية في موكب ثقيل ، فجاز عمر حتى أخبروه به ، فلما قرب منه نزل إليه ، فأعرض عنه ، فجعل معاوية يمشي إلى جنبه راجلاً ، فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر : أتعبت الرجل ، فأقبل عليه عمر فقال : يا معاوية

أنت صاحب الموكب آنفاً، مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات
ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذاك؟ قال: لأنا
في بلد لا نمتنع فيه من جواسيس العدو، ولا بد لهم مما يرهبهم
من هيبة السلطان، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني
عنه انتهيت. فقال: لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأي أريب،
وإن كان باطلاً فإنه خدعة أديب، وما آمرك به ولا أنهاك عنه
فقال عبد الرحمن بن عوف: لحسن ما صدر هذا الفتى عما
أوردته فيه. فقال: لحسن موارده جشمناه ما جشمناه

تنطوي هذه الرواية التي رواها ابن عبد ربه على أشياء
كثيرة، فهي تصور لنا استعداد معاوية للتلون بألوان البيئة التي
يحيا، وقد كانت بيئة الشام في عهده تعودت أبهة الروم وتقاليد
ملوكهم، فأحب معاوية أن يعطي هذه العادة، فجرى
يومئذ في هذه الأبهة وفي هذه المواكب، وقلل شيئاً من الخشونة
في العيش، فهي من عادة ما جرى عليه العرب. ومعاوية [illegible]
مفخمة، تؤثر في خصومه، وتعمل في ذويه، وقد انتهج معاوية
بهذه المعرفة النفسية، الحرص على العظمة وبسطها، فتنكر للعادة
التي تعودها أهل الشام من زمن بعيد، وهذه أمور لا تخرج عن

الآفاق المتسعة . وكانت سياسة معاوية تحت هذه الآفاق ،
وهذه السياسة هي التي حملت خليفة مثل عمر بن الخطاب على
الاعتراف بحسن مصادره وموارده حتى حشمه من حشمه ، وقد
كان قبله أبو عبيدة بن الجراح عاملاً لعمر على الشام ، وكان يظهر
للناس وعليه الصوف الجافي ، فعذل على ذلك وقيل له : إنك
بالشام ، ووالي أمير المؤمنين ، وحولنا الأعداء ، فغيّر من زيك ،
وأصلح من شارتك ، فقال : ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه
في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخلاصة القول : كان معاوية عارفاً بنفوس الأفراد والجماعات
والأمم ، ولما حضرته الوفاة ويزيد غائب دعا مسلم بن عقبة المري
والضحاك بن قيس الفهري وقال لهما : أبلغا عني يزيد وقولا له :
انظر أهل الحجاز فإنهم عصابتك وعترتك ، فمن أتاك منهم فأكرمه ،
ومن قعد عنك فتعهده ، وانظر أهل العراق فإن سألوك عزل
عامل في كل يوم فاعزله عنهم ، فإن عزل عامل واحد أهون
عليك من سل مائة ألف سيف ثم لا تدري علام أنت عليه
منهم ، ثم انظر أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار ، فإن رابك
من عدوك ريب فارمه بهم ، فإن أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى

بلادهم ، لا ينفسوا في غير بلادهم ، فيتأدبوا بغير آدابهم ، لست أخاف عليك غير عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي ، وأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه الورع ، وأما الحسين فأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وأما ابن الزبير فإنه خب ضب ، فإن ظفرت به فقطعه إرباً إرباً .

فهذا كله يدلنا على أن معاوية لم يعزب عنه طبائع أهل البلاد التي تولى مقاليد أمورها ، فكان يعرف طبائع أهل الحجاز وأهل العراق وأهل الشام ، وكان يعرف أخلاق من اتصل به من الرجال ، وهذه الأنواع من المعرفة النفسية كانت السر في نجاح سياسته حتى قال فيه عمرو بن العاص : اتقوا آدم قريش وابن كريمها ، من يضحك في الغضب ، ولا ينام إلا على الرضى ، ويتناول ما فوقه من تحته .

ولقد كان عمرو بن العاص من دهاة العرب ، ولكن دهاءه دون دهاء معاوية ، فقد نادى عليّ معاوية في وقعة صفين وقال له : يا معاوية إعلامَ يقتتل الناس بيني وبينك ؟ هلم أحاكمك إلى الله ، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور ، فقال عمرو لمعاوية : قد أنصفك الرجل فقال له معاوية : ما أنصفت ، وإنك لتعلم أنه

لم يره رجل قط إلا قتله أو أسره ، فقال له عمرو : ومن يحمل
بك إلا معاويته ، فقال له معاوية : صدقت ثم مضى !
وحقدها عليه .

وبدأ عمرو بن العاص على دهائه يستشعر أن بغض معاوية ،
ويدرك أن معاوية يحبه ويجعل منه لاستشارته ، ولكنه عمرو ويكن
له في نفسه حقداً نفث عليه حياته .

بيعة يزيد

فإن الفن الذي تقدم على عقد خلافة معاوية بسياسة
العملية، وإن هذا الفن يوضح لنا شيئاً من مذاهبه في هذه
السياسة، وقد ظهر هذا الأسلوب في طلبه البيعة ليزيد، ولم يبق
شيء في أن حبه هو علة هذه البيعة، فقد كان لابنه يزيد
في نفسه منزلة عظيمة، وقد ذكر بعض المؤرخين أن معاوية إذا
أعيته الأمور المشكلة المعضلة، بعث إلى يزيد يستعين به على
استيضاح شبهاتها، واستسهال معضلاتها. فلا عجب إذا جهد
في طلب البيعة له، وقد غالى في هذه السبيل ما غالى، وحمله
هذه المغالاة على عزمه في الإشارة إليه، وأثار قريشاً وغيرهم
رغبته في استخلاف يزيد من بعده على المسلمين، فقد سمع في
هذا الطلب ما يكرهه، قال له عبد الله بن عمر: إن هذه الخلافة
ليست بهرقلية ولا كسروية، يتوارثها الأبناء عن
الآباء، وقال له مروان بن الحكم: أهذا من تمويه الصبيان

وإذا أحببت أن تعرف مطلع عدوبة معوية تطلب البيعة لابنه يزيد فلا بأس بذكر الخبر الآتي :

كتب المغيرة بن شعبة إلى معوية حين كبر وخاف أن يستبدل به : أما بعد فقد كبرت سني ورق عظمي واقترب أجلي وسفهني سفهاء قريش فرأى أمير المؤمنين في عمله موفق . فكتب إليه معوية : أما ما ذكرت من كبر سنك فأنت أكلت شبابك ، وأما ما ذكرته من اقتراب أجلك فإني لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان ، وأما ما ذكرته من سفهاء قريش فحلومهم أحلوك هذا المحل ، وأما ما ذكرت من العمل فضح رويداً يدرك الهيجا حمل (١) . فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه فأذن له وخرج جماعة معه ، فلما دخل عليه قال له . يا مغيرة ! كبرت سنك ورق عظمك ولم يبق منك شيء ولا أراني إلا مستبدلاً بك ، قال الحدث عنه وعرف ليما وعن رى الكآبة في وجهه ، فأخبرنا عما كان من أمره ، فقالوا له : ما تريد أن تصنع ؟ قال : ستعلمون ذلك ، فأتى معوية فقال له : يا أمير المؤمنين ! إن الأنفس

(١) مثل في سعي عن العجلة .

يغدى عليها ويراح ، وليست فى زمن أبى بكر وعمر ، فلو نصبت
لنا علماً من بعدك نصير إليه . وإنى قد كنت دعوت أهل العراق
إلى بيعة يزيد . فقال : يا أبا محمد انصرف إلى عملك وأحكم
هذا الأمر لابن أخيك . وقلت : اركض على النجب ، فلقيت
فقال . والله لقد وضعت رجله فى ركاب طويل أبقى عليه أمة
محمد صلى الله عليه وسلم .

إن خبراً مثل هذا الخبر يدل على أمرين : على شدة رغبة
معاوية فى طلب البيعة ليزيد حتى أوشكت هذه الرغبة أن تكون
موطن ضعف فيه ، وعلى شعور المغيرة بهذا الموطن . وقد روى
فى كتب التاريخ والأدب على أوجه شتى ، ولكن الجوهر فيه
واحد . ونحن نعلم مقدار محبة معاوية ليزيد ، ونعرف المسعى الذى
سعاه فى أمر البيعة ، والعقبات التى تقحمها . فقد كانت هذه البيعة
شغله الشاغل ، فاتح الناس بها ثم سكت عنها ، ثم فاتحهم بها ثم
سكت ، حتى أمكنته الفرص فأقدم عليها ولم يحجم ، وما زال بها
حتى تمت على ما أراد . فمهارة المغيرة بن شعبة ، وهو من دهاة
العرب ، كانت فى الإحساس بهذه الرغبة فى نفس معاوية ، ولم
تكن نفس معاوية رقيقة الحجاب ، وإن الحجب التى تسترها

بكتيبة ، فالخوض بهم يستغرق كثيراً من العصبة والدهاء ، ولم
يعوز المغيرة شيء من ذلك ، فقد استطاع بحكمته أن يغير رأى
معاوية فيه ، وأن يرده إلى حسن الظن به وتحويل الاعتقاد فيه ،
استطاع بحكمته أن يحمله على إقراره في الكوفة بعد أن كادت
منه ورق عطفه وأخلص حبه وصفت له نفسه ، ولما كانت هذه
الحكمة جارية على الأخلاق النفسية ، على أنه قد يجوز أن معاوية
قال لمغيرة كذا وكذا به في صدر الأمر من باب الاستدراج حتى
يعلم ما عنده في يزيد ، وعلى هذا الوجه يكون الدهاء في هذا
الموقف أعظم من دهاء المغيرة .

ولما سبقت هذه المقدمة قبل الخوض في الكلام على بيعة
يزيد ، فهي تكون مقدمة عامة ، فهي تدل من جهة على براعة
نفسية ، وتدل على خلوص المغيرة في تحقيق نفس معاوية أو
خلوص معاوية إلى تحقيق نفس المغيرة ، وتدل من جهة ثانية على
الاهتمام الذي كان يهتمه معاوية ببيعة يزيد ، فلنشرع الآن في
أمر هذه البيعة .

طرب عبقرية معاوية في علم النفس في مواضع كثيرة من
سياسته ، وقد اخترت في هذا المقام موضعاً واحداً منها ، وهو طلبه

السمعة بريد ، لقد تغلغل في هذا العصر كل شيء ، وسلك إليه كل مسلك ، سلك ما نسميه في هذا العصر « الدعاية » وهو مسلك لا يحتاج إلى توضيح . فلا يجهل واحد منا عن تأثير « الدعاية » في الأمر ، حتى بلغ من هذا التأثير أن حدثت بعض الدول [illegible] من أساليب « الدعاية » الكبرى ، وهذه طريقة مشهورة ، ولا سيما في السياسة والتعليم ، وفي الأساتذة والمعلمين يجدون إليها سبيلاً لتقرير ما يريدونه في أذهان الطلاب .

وقد يكتشف [illegible] أسلوب « الدعاية » وحده ، وما به قصد إلى العقول [illegible] ، وحدها وأعمها ، ثم [illegible] ، ثم عمد في الشدة ، حتى استطاع بعد هذا كله أن يجعل السمعة مرتبطة على [illegible] في هذا [illegible] ، و [illegible] فيه لأهمية . [illegible] كتب التاريخ والأدب في وصف سمعة بريد ، فبعض هذه الكتب ما وقف معظمه في طائفة من تعصبين لهذه السمعة ، بل كان كثير بعض من تاريخ في شيء ، وكان هو الوحيد فيه استنباط العناصر الأساسية من سيرة بعض [illegible] المسلمين و [illegible] وحقائقهم ، و [illegible] بعض [illegible] التاريخ .

عوث على أن نرجع إلى كتب علامة آخذ من كل واحد منهم
ما يعيننى على توضيح موضوعى الذى نحن فيه . أما الدقة في
الأخبار والتفصيل فيها فتطلب في أمهات كتب التاريخ .

حدث في العهد الأموي أن معاوية بايع ليزيد وذلك سنة ثلاث
وخمسين فأظهر معاوية عهداً مفتعلاً، فقرأه على الناس، فيه عقد
الولاية ليزيد بعده، ثم أراد أن يسهل بذلك بيعة يزيد،
وما زال يروض الناس لبيعته سبع سنين، ويشاور ويعطى
الأقارب ويدني الأباعد، حتى استوثق له من أكثر الناس .

لم يفاجئ معاوية الناس مفاجأة برغبته في عقد البيعة
ليزيد، لأنه عرف أن كثيراً منهم يخالفونه في رأيه، فتلطف في هذا
الأمر واحتال له، وذلك أنه افتعل عهد البيعة ليرى تأثيره في
الناس، ثم عمد للتمهيد إلى هذه البيعة سبع سنين، وهي مدة
كافية على أن تعتقد قلوب الناس التي أخذها في خلال سبع
سنين كثر ترويض يزيد وكفاءته ومنحها لإذابة جمود
الضغائن والكفاءة حتى تصبح عقيدة مكينة .

كان معاوية في خلال هذا الترويض لا يغفل عن استشارة
الناس في أمر البيعة، وهو لم يذهب هذا المذهب للاستعانة

رآه أبوه، وإذا كان يزيد بن معاوية مطوي عليه قومه، حتى بعد الكلام وعدته، فقال لعبد الله بن الزبير: ما ترى في بيعة يزيد؟ قال: يا أمير المؤمنين، إني ناديتك ولم أناجك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تتقدم، وتفكر قبل أن تندم، فإن النظر قبل التقدم، والتفكر قبل التندم. فضحك معاوية وقال: ثعلب رواغ، تعلمت السجع عند الكبر، في دون ما سجعت به على ابن أخيك ما يكفيك، ثم التفت إلى الأحنف فقال: ما ترى في بيعة يزيد؟ قال: نخافكم إن صدقنا، ونخاف الله إن كذبنا.

من ضحكة معاوية يتبين أنه لم يسأل أحدًا عن رأيه في بيعة يزيد من باب السياسة الظاهرية، وأنه حتى يعرف ما يدور بنفسه، ولم يحفل أن يروغ الثعلب، لأنه وثق أن هذا الروغان لا يستعمل مع رجل مثل معاوية هذا الأسلوب من الكلام. كان يجب عليه أن يعرف أن معاوية لا يسأله عن رأيه في يزيد إلا من باب الاستدراج، فقد أسرع انكشاف ابن الزبير لمعاوية، وقد أسرع حقد معاوية وروغان ابن الزبير.

لم يكتف معاوية بهذه الاستشارات، ومرت الأيام [illegible]
[illegible] أمس [illegible] فيقدم على البيعة، [illegible] المغيرة [illegible]
فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب إلى سائر الأمصار أن يفدوا
عليه، فوفد عليه من كل مصر قوم

بين هؤلاء يوجد رجال لا يوافقون معاوية على رأيه في [illegible]
يزيد و[illegible] على ذلك، فلما [illegible] الاستشارة الأولى
علانية حتى [illegible] [illegible] مشفقة [illegible] وفود
المدينة وهو محمد بن عمرو بن حزم، فخلا به معاوية وقال له:
ما ترى في بيعة يزيد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما أصبح اليوم
على الأرض أحد هو أحب إلي رشداً من نفسك سوى نفسي،
وإن يزيد أصبح غنياً في المال، وسطاً في الحسب، وإن الله
سائل كل راع عن رعيته، فاتق الله وانظر من تولي أمر أمة
محمد. فأخذ معاوية بهر حتى تنفس الصعداء، وذلك في يوم شات.
ثم قال: يا محمد، إنك امرؤ ناصح قلت رأيك، ولم يكن
عليك إلا ذاك، وإنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، فابني أحب إلي
من أبنائهم، اخرج عني.

من حسن سياسة معاوية كانت له [illegible] حزم

علانية ، ويعد بها كل من حوله ، ولكنه كان عرف أن
قومه لا يحبونه ، فخاف أن يؤثر هذا الخوف في جمعه أو
قبيحة ، فيغيروا رأيهم من بعد الهدوء ، فمن حق معاوية ألا
يدع ذلك ، وهو تهيئة الناس ليوافقوه على بيعة يزيد ، فخاض في
نجواه ووفدت الوفود فدخلوا عليه ، وقد تقدم في بحثنا من
بعثهم في يزيد ، ونحن لا نرى حاجة إلى إعادة أقوالهم ، وإنها
مدونة في كتب التاريخ والأدب ، وربما تكفي التنبيه على أن
هذه الأقوال كلها تجمع أجمعها على التنويه بحسن معرفة يزيد
وقصد سيرته وفضل حلمه وعقله وما شاكل هذه الصفات .

ولما تمت بيعة العراق والشام بقي أمر الحجاز بعض الشيء ،
فاستطاع معاوية بعد ذلك أن يبعث إلى أهل الحجاز

كان مروان بن الحكم عامله على المدينة ، فكتب إليه معاوية
يذكر الذي قضى الله به على لسانه من بيعة يزيد ، ويأمره بجمع
من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ثم يبايعوا ليزيد ، فلما
قرأ مروان كتاب معاوية أبى البيعة ليزيد وأبته قريش ، وكتب
لمعاوية إن قومك قد أبوا إجابتك في بيعتك ابنك ، فأرني
رأيك ، فلما أتى معاوية كتاب مروان عرف ذلك من قبله ،

فكتب إليه مروان بن الحكم يعزيه ويخبره أنه قد ولي المدينة سعيد بن العاص. وفي تاريخ المسعودي أن معاوية بعد عزله مروان عن المدينة ولاها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وكتب معاوية إلى سعيد بن العاص وهو على المدينة يأمره أن [illegible] [illegible] بني أمية، فكتب إليه [illegible]

وقد أبى سعيد بن العاص الكتاب [illegible] إلى [illegible] وأظهر الغلظة [illegible] [illegible] [illegible] ذلك [illegible] العاص عنها إلا [illegible] [illegible] [illegible] يجمعهم [illegible] وكان [illegible] كذلك [illegible] وكتب سعيد بن العاص إلى معاوية بهذه الأمور كلها، وكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس وإلى عبد الله بن الزبير وإلى عبد الله بن عمر وإلى الحسين بن علي كتباً، وأمر سعيد بن العاص أن يوصلها إليهم ويبعث بجواباتها، وأوصاه بالرفق وجانب الخرق، وأوصاه بالحسين خاصة، وقد كانت كتب معاوية تجمع بين الشدة واللين، فحسب من كان يكتب إليهم، وكذلك جواباتهم، فبعضهم كان شديداً، وبعضهم كان ليناً.

فلما جاوبوا معاوية بما جاوبوه به من خلاف لأمره

والكراهية لبيعة يزيد . كتب مرة ثانية إلى سعيد بن العاص يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد أخذاً عنيفاً وشدة ، ولا يدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا ، وأمره ألا يحرك وثبت لمن يرد كلامهم وكلامه ، ولا يهيجهم ، فلما قرأ عليهم كتاب معاوية أخذهم بالبيعة عنفاً فأبطأوا من الأخذ وعنفه ، فلم يبلغ منهم ما يرضيه ، فكتب إلى معاوية أنه لا يرى أحداً من الناس مع هؤلاء النفر ، فهو يرى أن يبعث الناس حوله إذا تحقق عنده ما حدث

ثم حج معاوية بالناس هذه السنة ، وهو يركب إلى المدينة نفسه . فبسط في الأسباب التي تمهد مع الناس لما يريد من بيعة يزيد

قدم معاوية المدينة حاجاً ومعه خلق كثير من أهل الشام ، فلما دنا من المدينة خرج إليه الناس يتلقونه بين راكب وماش ، وخرج النساء والصبيان ، فتلقيه الناس على قدر طاقتهم وما تسارعوا به في الموت والقرب . فلان لمن كافحه وفاوض العامة محادثته وأعلمهم جهده مقاربة ومصانعة ، يستميلهم إلى ما دعا فيه الناس ، حتى قال في بعض ما يخاطبهم به : يا أهل المدينة

فإن رأيت أن تطوي [illegible] من بعد السؤال [illegible] حتى أطوي العهد ، فلا تخش ، وحق جار رسول الله أن يشتاق إليه .

حتى إذا كان من الغد خرج فيه الحسين بن علي وعبد الله بن عباس قبل معاوية ، فرحب بهما [illegible] رسول الله [illegible] ثم انصرف إلى الناس فقال : هذان شيخا بني عبد مناف ، وأقبل عليهما بوجهه وحديثه ، فرحب وقرب ، وجعل يواجههما مرة [illegible] أخرى ، حتى [illegible] ، فلما [illegible] والمرء [illegible] فانصرفا عنه .

[illegible] الحسين إلى منزله ومضى عبد الله بن عباس إلى المسجد [illegible] حتى أتى عائشة أم المؤمنين [illegible] وكان [illegible] في [illegible] ولا يخون عهودهم ومواثيقهم .

ثم خرج من عند عائشة حتى أتى منزله ، فأرسل إلى الحسين بن علي فخلا به ، ثم أرسل بعده إلى ابن الزبير فخلا به ، ثم أرسل

[illegible] ثم أرسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر
[illegible] الأحاديث
[illegible] لا [illegible] الأمة [illegible]
على بيعة يزيد [illegible]

[illegible]

[illegible] ثم أرسل إلى
الحسين بن علي [illegible] عبد الله بن عباس [illegible]
[illegible] على بيعة يزيد
[illegible] وأرسل إلى عبد الرحمن
بن أبي بكر [illegible] عبد الله بن عمر [illegible] عبد الله بن الزبير
[illegible]

ثم [illegible] لا يجوز
ثم [illegible] أن يجتمعوا [illegible]

فاجتمع الناس في المسجد، وقعد هؤلاء النفر حول المنبر، فحمد الله
وأثنى عليه، ثم ذكر يزيد وفضله وقراءته القرآن، ثم خطب خطبة
قصد منها أنه يريد ألا يقع الناس فيه من الاختلاف، وقد
جرى بينه وبين الحسين كلام شديد، ثم وثب عبد الله بن الزبير
إلى معاوية فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض فترك
الناس إلى كتاب الله، ورأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر،
ثم رأى أبو بكر أن يستخلف عمر، وهو أقصى قريش منه نسبًا،
ورأى عمر أن يجعل الشورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين،
وفي المسلمين ابنه عبد الله وهو خير من ابنك، فإن شئت أن
تدع الناس على ما تركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم،
وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير
من يعلم، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر، فتختار رهطًا
من المسلمين فتزويها عن ابنك فافعل.

لقد أصر القوم على إنكارهم لبيعة يزيد، ولم يبق لمعاوية
متسع من الوقت يلاطف فيه من يلاطف، ويجمجم فيه من
يجمجم، ويتهدد فيه من يتهدد، فقد ذهب في اللين كل مذهب،

في نفسه بيعة ولا عقدته ملاحظته ، فما هو الأثر الذي يبقى بعد هذا النوع من السياسة ؟

ثم إن معاوية عزم أمره وجمع قواده في مجلسه وأمر صاحب حرسه وشرطته قائلاً أن يحضروا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة وهم : الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبي بكر ، ثم أمر معاوية صاحب حرسه أن يخرج عشية إلى أهل الشام فيخبرهم أن هؤلاء النفر قد بايعوا ، وأمره إن تكلم أحد منهم بكلام يصدقني أو يكذبني فيه فلا يمضي كلامه حتى يطير رأسه ، ففعل القوم ذلك ، فلما كان العشي خرج معاوية وأخرج معه هؤلاء النفر وهو يضاحكهم ويحدثهم وقد ألبسهم الحلل ، فظن الناس أن عمل خيراً ، وأن الحسين قد تغير ، وأن عبد الله بن عباس قد تغير ، وأن عبد الله بن الزبير قد تغير ، ثم خرج معهم وظهر لأهل الشام ورضي عنهم ، وأثنى عليهم ، وقال : يا أهل الشام إن هؤلاء النفر دعاهم أمير المؤمنين فوجدهم واصلين مطيعين ، وقد بايعوا وسلموا ، فدل ذلك وقوم سكوت ، لا يتكلمون خشية القتل ، فوثب ناس من أهل الشام فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن كان رابك منهم

[illegible] حتى [illegible] أعناقهم ، وقال [illegible]
[illegible] الشجرة ، لا [illegible]
[illegible]
[illegible] ، ثم [illegible] بعد [illegible] مكة ، وقد أعطى
[illegible] عطاياهم [illegible] إلى كل [illegible]
[illegible]

على هذا [illegible]
[illegible] لا [illegible] من حيث [illegible]
[illegible] في [illegible]
[illegible] من حيث [illegible]
[illegible] على [illegible] ، فقد [illegible] في [illegible]
[illegible] في [illegible]
[illegible] ، وهذه [illegible] وهذه [illegible]
من [illegible] ، لأن [illegible] في النتيجة التي [illegible]
[illegible] إلى [illegible] ، ولكنه [illegible] في هذه [illegible]
[illegible] في حال من [illegible]
وإذا كان [illegible] في [illegible] لا [illegible] من [illegible]

الشدة في بعض الأحيان ضرب من هذه السياسة، فقد يصح
اللين لأول مرة، ويصح اللين ثاني مرة، والعاقل من رجال
السياسة من يعرف متى يكون هذا وذاك.

لا بد من هذا البحث كله وبعده هذه الصور ونرى كتب
التاريخ والأدب الأصول في هذه السياسة، وهي أن معاوية
في سياسته على ضروب مختلفة. ونحن نستطيع أن نستدل من هذه
السياسة أشياء كثيرة، ولكنا لا نرى في الاستقصاء فيها، وإنما
الغاية التي نتوخاها هي السياسة التي لا غنى عنها أن نورد
في سياسته على هذه الأصول نفسها، فقد نهج معاوية، ونفصل
في ذلك في الفصل الآتي

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

من قرأ معاوية في هذا كله أنه كشف عن قلوب سادة قريش في
بيعة يزيد، فعرف منهم من يكون الغدر، فمضى في سياسة التخويف،

ولو أنه صدق ظنه فيهم ونجدوا عقيل لدى شخوصه إليه لأفسدوا على معاوية بيعة يزيد في الشام . ولكن معاوية كان عرف من قبلهم ، كما عرف شيوخ قريش بالمسلمين وكان المسلمون يجهلون بعد أساليب السياسة !

خطبة زياد في البصرة

إن الكلام على [illegible] من [illegible] الفنية يجر
إلى الكلام على زياد من الناحية [illegible] من [illegible] بين
[illegible] ، ولا نحتاج في تصحيح نسبة [illegible] إلا [illegible]
على خطبته في البصرة ، [illegible]
[illegible] الأدب [illegible] بالكلام على خطب [illegible]
في ناحية [illegible] في هذه الخطب ، [illegible] الناحية
الفنية فيها ، فقد اشتملت طائفة من خطب [illegible] على [illegible]
[illegible] على [illegible]
[illegible] واطلاعهم على [illegible] ، لقد كان
كثير من خطباء العرب [illegible]
[illegible]
الكلام ، [illegible] من أن تمكن [illegible] البلاغة .
ويكاد يكون [illegible] الأثر [illegible] في [illegible]
[illegible] في قديم الدهر .

من هذه الطبقة زياد، [illegible]

[illegible] فخطب خطبته البتراء المشهورة [illegible]

[illegible]

[illegible] الأصوات التي [illegible]

[illegible] في خطبته البتراء، [illegible] هذه

الخطبة [illegible] بتراء.

لا شك في أن [illegible] شتى،

[illegible] الأدب [illegible] وفي

[illegible] في [illegible] هذه [illegible]

فاتحة خطبته:

« أما بعد فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغي الموفي

بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من

الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير »

[illegible] على [illegible] هذه

مقدمة الكلام الذي [illegible] أهل البصرة [illegible]

[illegible] ولا ريب في أن مثل هذا الكلام من

شأنه أن يكون له وقع حسن في نفوس [illegible]

الهين أن ينسب الوالي أهل البصرة إلى الجهالة والضلالة والعمى وأن يرضوا عنه ، فكيف حاول زياد أن يبتعد عن هذا المورد المنكر الذي ورده ؟ لقد فطن لما فطن له في مقدمة خطبته ، ولم يندفع في هذا النمط من القول ، فبعد أن عاب أهل البصرة بما عابهم به ، وبعد أن ظهرت الشدة على كلامه ، أحب أن يظهر اللين عليه ، فقال :

« كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول »

فيجد زياد بغيته من كتاب الله يستدل به على سوء أهل البصرة وخبثهم ، فيعلن أنهم لم يأبهوا بما في كتاب الله ، وهو الحصن الحصين في مثل هذه الحال ، وأن أكثر أهل الجهالة والضلالة والعمى لم يكونوا بثواب الله ولا بعقابه ، ولكن زياداً قد علم أن الاستهانة بكتاب الله تمهيد السبيل إلى الفسوق ، فتبسط في هذا الضرب من الوعظ فقال :

« أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم

فى الإسلام، الحدث الذى لم تسمعوا إليه من تركتكم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ».

فاستعمل زياد طرفاً من الحكمة فى تنبيه أهل البصرة على أعمالهم، مثل إيثارهم الدنيا وحب الشهوات لنفوسهم، فكان كلامه عاماً ليس فيه شىء من التخصيص، فلم يفاجئ الناس مفاجأة بذكر الأمور التى خالفوا فيها كتاب الله، ولكنه لم يرد أن يختم عبارته دون ذكر واحد من هذه الأمور، وهو ترك الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، وفى هذا الكلام شىء من إلقاء العداوة بين الضعفاء والأقوياء، ولا شك فى أنه فى خطبته من جمع حطبته كثيراً من هؤلاء الضعفاء.

فلما تمكن بعض التمكن من قلوب الناس، سواء أكان هذا التمكن بالتذكير بكتاب الله، أم بالتحول إلى يسير من الوعظ، أم بالإغراء بين الضعفاء والأقوياء، حلا له النحو واستطاع أن يكاشف أهل البصرة، معهم ما وجهم بأنواع من الآثام وصلالاتهم وغيهم فقال:

« ما هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر، والعدد غير قليل؟! ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن

دلج الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس ، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ، وقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب » .

هذه حالة البصرة لما قدمها زياد عاملا لمعاوية : مواخير منصوبة ، ضعيفة مسلوبة ، غواة في الليل والنهار ، غضب على المختلس ، ذب عن السفيه ، ومجرى إليها لأمور مخالفة لكتاب الله ، مخالفة لقانون الاجتماع ، أمور لا يصح من مثل زياد أن يسكت عنها ، لأن في السكوت عنها ضياعاً للمسلمين ، وضياعاً لزياد نفسه ، وضياعاً لسياسة معاوية أمير المؤمنين ، فماذا أعد زياد لأهل البصرة ، وماذا في عزمه ؟ هذه خطته :

« حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً ، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وإني أقسم بالله

لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد، فقد هلك سعيد، أو تستقيم قناتكم».

لأن يكشف زياد لأهل البصرة، فظهرت سياسته في حقيقة صورتها: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف. ولكن الشدة كانت تغلب على كلامه من اللين، ونحن نظهر هذه الشدة في عزمه على هذه المكافأة بين البريء والمجرم، فقد ظهرت في أخذه الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم. ولولا هذه الشدة لما استقامت قناة أهل البصرة، ولولا هذا العنف ما استطاع زياد أن يضبط من أهل البصرة ما ضبط، وأن يحول الاجتماع فيهم على ما عهد.

ولكن زياداً خاف ألا يصدقه الناس في الذي عزم عليه، فقد خاف أن يرموه بالكذب في يمينه، فاضطر إلى أن يؤيد هذه اليمين بقوله: «إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة، فإذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي، وإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في، واعلموا أن عندي أمثالها».

ثم وقد فطن زياد إلى أن كلامه قد وقع في آذان الناس

وقلوبهم، ولم يخف بعد هذه الخطبة شيئاً من كذب الناس به فيسدد إلى إصلاح سيرته في إصلاح حال البصرة، ويتوسع في تبيين العقوبات التي اتخذها في سبيل هذا الإصلاح

«من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه، فإياي ودلج الليل، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه. وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قوماً غرّقته، ومن حرّق قوماً حرّقته، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً. فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه»

ينبغي أن نلاحظ أن العقوبات التي وضعها زياد في هذا الكلام أخف من العقوبات التي ذكرها من قبل. فالفرق ظاهر بين أخذ الولي بالمولى مثلاً وبين تغريق من يغرق قوماً، فقد نزل زياد عن شدته بعض الشيء، فأمن الناس على أموالهم وأرواحهم وأحدث لكل ذنب عقوبة، فقد كانت البصرة حين مقدمه

زياد فى حومة لا يصح معه اجتماع ولا ينمو فيه مال ولا يكثر عمران، وفى بلد أمسوا حولا من السداد لدى يعيشه فيه التحرق والإحراق والنقب والنبش وأشباه هذا كله ؟! فبعد أن أدخل زياد على أهل البصرة الطمأنينة إلى أموالهم وأرواحهم، وبعد أن خوّف سفهاءها بهذه العقوبات التي أحدثها، لجأ إلى اللين فى كلامه حتى يستميل القلوب إليه فقال: « وقد كانت بيني وبين أقوام إحن، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته، إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي صفحته لي، فإذا فعل ذلك لم أناظره، فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس ».

إنما جدد زياد فى هذا الكلام طوى أحقاده وظهر فى أخلاق الولي المنصف، فلا يحاسب الناس على بواطنهم. فقد أخذ يتشبه فى هذه السياسة بسيدنا عمر بن الخطاب، وعلم أن مثل هذه السياسة تزيد فى تمييل الناس إليه، بعد الشدة التي ظهرت آثارها على كلامه، فتبسط فى هذا المذهب فقال:

« أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم، ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً عن إبانه، ولا مجمّراً لكم بعثاً، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم، ولا تدركوا له حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيه لكان شراً لكم، أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله » .

هذا كلام أشبه شيء بكلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد انسحب زياد على أذيال عمر في هذه السياسة، فجعل بين الراعي والرعية هذه الصلة متينة، صلة مناصحة، وإذا فقدت المناصحة بين الحكومة وبين الأمة تمكن من الأمة كره الحكومة، وتمكنت من الحكومة النقمة على الأمة، ومتى اشتدت الكراهية من ناحية

الشعب والقوة من ناحية الحكومة ضعف الحكومة والشعب في وقت واحد . وهذا ما فطن له زياد في آخر خطبته فأحب أن يصور أولي الأمر في صورة الكهف الذي ترجع إليه في شدائدها ، وإذا صلح صلحت الأمة ، وإذا فسد فسدت . وهذا هو شأن الأعلى في الحكم .

إلا أن زياداً أحب أن يكون آخر ما يعلق بأذهان أهل البصرة من خطبته ، بعد أن يشعر بالشدة التي غلبت على بعض كلامه ، وبالعقوبات التي أخذهم بها ، وخلاصة ذلك أن يسووا زياداً فهذا هو الغرض فقال :

« وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي »

وهكذا فقد بدأ خطبته بالشدة وختمها بالشدة ، أما اللين فكان يتخلل كلامه .

* * *

أما وقد فرغنا من قراءة خطبة زياد في البصرة ، فهل استطعنا أن نعرف سياسته النفسية من خطبته . نحن لا نحتاج بعد أن دققنا في كلامه هذا التدقيق إلى السؤال عن عنصر

هذه السياسة ، فقد كان تصرفه في خطبته عنوان تصرفه في سياسته العملية ، وإن كان مكتوبا في نفسه : الشدة في غير عنف واللين في غير ضعف فتكون هذه الحكمة أول شيء في سياسة زياد ، فإن جوّه في كلامه بين الرفق مرة وبين الغلظة مرة ، ثم تقلبه بين وعد ووعيد ، دليل على حذقه أساليب السياسة العملية وعلى مهارته في مداخلها ومخارجها ووقوفه على صنائع الناس . ولولا هذه البراعة في السياسة وعلم النفس لما كتب له هذا النصيب من التوفيق . فلا جرم أن بين خطبة زياد في البصرة ، وتمثلا خواطر منهم ، فقد فهمهم لأسرارها النفسية وحسبها أن تكون ثم وزن كبير إذا قرنت خطب رجالات العرب في القديم على هذا الوجه فإن عقدنا مقارنة بين فهمهم وبين إدراك عصرنا هم !

عبد الملك بن مروان

من ناحية ثانية فهم عبد الملك بن مروان روح الجماهير فبنى سياسته عليها، وقد يجوز لنا أن نذكر هذه الروح من مواضع كثيرة، ولكنا نقتصر في هذا الفصل على قليل منها، ولا عبرة بكثرة الأخبار التي تدل على تمكن عبد الملك من المعرفة النفسية في السياسة، وحسبي في هذا المقام خبران، فإنا لا نستقصي في هذا الكتاب في أخبار التاريخ. كان عبد الملك بن مروان من رجال السياسة المشهورين في بني أمية، وهو يستحق إفاضة في الكلام عليه، وتوسعاً في وصفه، على نحو ما جرى في الكلام على معاوية، ولكن خبرين قد يدلان على علو مرتبته في السياسة النفسية.

قرأت في فصل من فصول كتاب فرنسي «معجزات الفكر» العبارة الآتية. الرجل الذي يستطيع أن يبتسم والأمور من حوله مرتبكة أفضل من الرجل الذي يضعف في الشدائد، الرجل الذي

يتسم وإنما مقتاب عليه يدل على أنه من معدن رفيع ، فلا يقدر على مثل ذلك أي رجل كان .

وظن أن عبد الملك بن مروان هو الرجل الذي يتسم بهذه الصفات ، فسار في جيوش أهل الشام ، وظل يطارد ينتظر ما يكون من ابن زياد ، وقد كان ابن زياد يقود عسكر الشام من قبل عبد الملك لمحاربة العراق ، فأتى عبد الملك خبر مقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالكوفة ، ثم جاءه خبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ، ومسير مصعب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين ، ثم جاءه مسير ملك الروم لاوي بن سقط ونزوله المصيصة يريد الشام ، ثم جاءه خبر دمشق وأن عبيدها وأوباشها ودعارها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل ، ثم أتاه أن من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع ، وغير ذلك مما نمى إليه من المعضلات في تلك المدة ، فلم يُرَ عبد الملك في ليلة قط أشد ضحكاً ولا أحسن وجهاً ولا أبسط لساناً ولا أثبت جناناً منه في تلك الليلة ، تجلداً وسياسة للملك ، وترك حصار العشل وبعث بأموال وهدايا إلى ملك الروم فشغله وهادنه ،

وسار إلى فلسطين [illegible] على جيش [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
دمشق فنزلها .

[illegible]

على الأشدق [illegible] عبد الملك في مئة من أصحابه ، وبقي خارج [illegible] في ليلة [illegible] فعرفته العصبية من حيث اتصاله [illegible] قد خرج من [illegible] العصبية من حيث [illegible] في [illegible] .

يقول هذا الخبر قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق ، وقد [illegible] هذا القتل على وجوه شتى ، من [illegible] في الإمامة والسياسة وابن عبد ربه في العقد الفريد .

[illegible] عبد الله بن الزبير [illegible] الناس إلى بيعته بعد موت يزيد بن معاوية ، وقد أتته بيعة أكثر الآفاق حتى قتله الحجاج عامل عبد الملك ، ولكنه قبل أن يقتل [illegible] أهل العراق و[illegible] عبد [illegible] ، وقد كان [illegible] عبد الملك بن [illegible] ، فلما أراد عبد الملك [illegible] من دمشق استخلف عليها عبد الله بن يزيد ، [illegible] عمرو بن سعيد الأشدق من عسكره ووصل إلى دمشق ، فبايعه عبد الله بن يزيد و[illegible] دمشق ، [illegible] عليه عبد

الموت راجعاً إليه ، فحصر أهل دمشق أشهراً حتى صالح عمرو بن
سعيد على أنه الخليفة بعده ، ففتح دمشق ، ولما اصطلح عبد الملك
وعمرو بن سعيد الأشدق على هذا الأمر أرسل عبد الملك إلى عمرو
بن سعيد نصف النهار أن ائتني أبا أمية حتى أدبر معك أموراً ،
فخرج ليأتيه ، فقالت له امرأته : لا تذهب إليه فإني أتخوف عليك
وإني لأجد ريح دم مسفوح ، فما زالت به حتى ضربها بقائم
سيفه فشجها ، فتركته فأخرج معه أربعة آلاف رجل من أهل
دوابه مسلحين فأحدقوا بخضراء دمشق وفيها عبد الملك فقالوا
لعمرو إذا دخلت على عبد الملك يا أبا أمية ، ورابك منه شيء ،
فأسمعنا صوتك ، فقال لهم : إن خفي صوتي ولم تسمعوه فلا تزالوا
بي وبينكم ميعاد ، إن زالت الشمس ولم أخرج إليكم فاعلموا
أني مقتول أو محبوس ، فضعوا أسيافكم ورماحكم حيث شئتم ولا
تضعوا سيفاً حتى تأخذوا ثأري من عدوي . فدخل وجعلوا
يصيحون أبا أمية ، أسمعنا صوتك ، وكان معه غلام أسود
شجاع ، فقال له : اذهب إلى الناس وقل لهم : ليس عليه بأس ،
فسمع عبد الملك أن وراءه جماعة ، ففطن عبد الملك إلى ذلك
وقال له : أتمكر يا أبا أمية عند الموت ، خذوه ، فأخذوه ، فأمر

عبد الملك أخاه عبد العزيز بن مروان بقتله، فرقّ له عبد العزيز لأنه تمتّ معه بالرحم، فأمر عبد الملك رجلاً عنده فضرب عنقه ثم أدرجه في بساط ثم أدخله تحت السرير، فدخل عليه قبيصة بن ذؤيب الخزاعي وكان أحد الفقهاء، وكان رضيع عبد الملك بن مروان وصاحب خاتمه ومشورته، فقال له عبد الملك: كيف رأيت في عمرو بن سعيد؟ فأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير فقال: اضرب عنقه يا أمير المؤمنين، فقال له عبد الملك: جزاك الله خيراً، ما علمتك إلا ناصحاً أميناً، موافقاً، ثم قال له: ما ترى في هؤلاء الذين أحدقوا بنا وأحاطوا بقصرنا؟ قال قبيصة: اطرح رأسه إليهم يا أمير المؤمنين ثم اطرح عليهم الدنانير والدراهم يتشاغلوا بها، فأمر عبد الملك برأس عمرو أن تطرح إليهم من أعلى القصر، فطرحت إليهم وطرحت الدنانير، ونثرت الدراهم ثم هتف بهم الهاتف ينادي: إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه أن يحمل راجلكم ويكسو عاريكم ويغني فقيركم ويبلغ بكم أكمل ما يكون من العطاء والرزق، ويبلغكم إلى الثمانين في الديوان، فاقبلوا أمره، واسكنوا إلى عهده، يسلم لكم دينكم،

وصاحوا : نعم ! نعم ! سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين !

***

قد يكون في هذا القتال شيء من الغدر على نحو ما يراه بعض المؤرخين ، إلا أني لا أنظر إلى الرواية من الناحية الخلقية ، وإنما أنظر إليها من الناحية السياسية العملية ، وإني لأرجو المعذرة من توسعي في حدودها ، فإلى شيء من التاريخ قصدت ، ولكن هذا الخبر ليس بسيط ، إنه ينطوي على ناحية نفسية دقيقة ، فليس الهين أن يقتل عبد الملك رجلاً مثل عمرو بن سعيد الأشدق ، ومن تاريخ العرب لا يجهل أمثال هذا القتل ، إنهم لن يستطيعوا حل مثل قضيته من دون أن يخرجوا عن نفس جماعة عمرو من حب إلى حال في دقائق ، ولا ريب في أن عمرو بن سعيد لم يذهب إلى عبد الملك ليتحبب ، شد جماعته خلاصاً له وتعلق به حتى يحميه وينجو بشره ، وذلك لأنه أعز ، فقد كانوا من أهل الشام الذين لا يقدر على مثلهم . وكان عمرو نفسه محبباً في أهل الشام ، ولا يعقل أن نعرف أنه كان من حكمة أن يذهب إلى عبد الملك ثم كان من الحكمة أن لا يذهب إليه بجملة عشيرة أمرائه ، وإنك لتدهش أن تعرف أن عمرو بن

سعيد الأشدق غير مرة واحدة ، فقد عرفت عنه أخلاق
جعلته لا يثق في حداثته ، وذلك حق هذه الأخلاق التي
تبعد عن عشيرته وتحفظهم وهم ابن ذؤيب الخزاعي ، وذلك
هذه العصبية أخلاق أهل البادية في كل جيش فيهم ، ولقد شجع
بهذه المعرفة العصبية في شدة حدتهم ، وهو يحرص على مشورتهم
لقد دفع ما عمل إلا نتيجة تصميم عبد الملك بن مروان وهو
قصره ، وليس بقليل أن يحيط بهذا القصر زمرة الأقربين من رجال
مسلحين ، من نطاق أهل الشام ، ويقال إنه لما اتسعت
الحرب بينهم وبين عبد الملك وجماعة القصر قتل عبد الملك
في حرق القصر ، ولكن ابن ذؤيب الخزاعي عرف كيف يحمي
عبد الملك من هذا القصر ، فهو بطل هذه السياسة في مقتل
عمرو بن سعيد الأشدق .

ولقد عرف عبد الملك بن مروان هذه السياسة العصبية واستعان
بها على أمور شديدة حدثت في أيامه ، ومنها ما سنذكره الآن .
ومنه خروجه إلى العراق يدعو الناس إلى طاعته ويخلص العراق
من خلافة عبد الله بن الزبير وولاية أخيه مصعب ، وحرب
مصعب بن الزبير أهل البصرة والكوفة ، والتقى بين الشام .

والعراق ، وكان عبد الملك ومصعب قبل ذلك متصافيين ، صديقين متحابين ، لا يعلم بين اثنين من الناس ما الصفو مما بينهما من الإخاء والصداقة ، ويجتمع عبد الملك بمصعب وخلاله ويحاول أن يفصله عن أخيه عبد الله ويبذل له الأمان وقال له : إنه يعز على أن تقتل ، فاقبل أماني ولك حكمك في المال والولاية فأبى ، فلما قطع أمله منه كتب إلى أناس من رؤساء أهل العراق يدعوهم إلى نفسه ويجعل لهم أموالا عامة وشروطاً وعهوداً ومواثيق وعقوداً . وكتب إلى إبراهيم بن الأشتر يجعل له وحده مثل جميع ما جعل لأحد منهم على أن يخلعوا عبد الله بن الزبير إذا التقوا ، فعلم إبراهيم بن الأشتر مصعب بن الزبير بذلك وأشار عليه بضرب أعناق من كتب إليهم عبد الملك أو يحبسهم ، فلم يفعل مصعب شيئاً من ذلك ، فلما التقت جماعة عبد الملك وجماعة مصعب خذلت جماعة مصعب رؤساءهم وتركوه وخذلوه ومالوا إلى عبد الملك بن مروان وبقى مصعب في سبعة نفر ، ثم قتل !

هذه سياسة من يعرف روح الجماعات ، فيسوس هذه الجماعات من ناحية هذه الروح !

الحجاج

لئن دلت خطبة زياد فى البصرة على جوهر سياسته النفسية لقد دلت خطبة الحجاج فى الكوفة على الجوهر نفسه ، ولكن الفرق بين روح الخطبتين أن زياداً جمع فى خطبته بين الشدة واللين وهذا الجمع إنما هو عنوان سياسته فى كل أيامه ، أما الحجاج فإنه اقتصر على الشدة وحدها ، وما عرضت على ذهنى خطبته فى الكوفة إلا تراءت لى فى صفحتها أشياء غير بلاغته ، لقد انكشف لى بعد تقليب النظر فى هذه الخطبة السر فى توفيق الحجاج من أول يوم ولى فيه العراق ، فليس بالأمر الهين أن ينقاد الناس إليه هذا الانقياد ، ثم يبسط سلطانه هذا الانبساط، وكيف خضع أهل المسجد خضوعهم الذى عرفناه ، وكيف سكتوا سكوتهم الذى عهدناه ، لقد انتدب الحجاج ، لا بل قد ندب نفسه إلى أمر تهيبه شيوخ بنى أمية وخافوا عواقبه ، أفليس بالأمر العجيب أن يخرج عبد الملك إلى أصحابه ويقول لهم ثلاث

[illegible]

[illegible] النفسية .

[illegible]

من الدمن ، وصار مستحله محتقراً عند أهل العصبية والملك ،
والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ،
ومكانة ثقيف من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف
معلومة ، فلم يكن تعليمه القرآن لمعاش ، وإن كان للأمور التي
وصفها ابن خلدون في الكلام المتقدم .

وعلى هذا الوجه لم يبق شك في أن التعليم لم يحط من قدر
الحجاج أو من مقدار أبيه وأخيه ، وكثيراً ما فخر الحجاج بأنه
ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش ، وإذا كنت قد
تبسطت في هذه القضية بعض التبسط فذلك لأنني أرى في
مدرسة الحجاج لصناعة التعليم سراً من أسرار نجاح سياسته ،
فقد مكنه هذا التعليم من الوقوف على الطبائع والتسلل إلى
مواطن النفوس وكشف النقاب عن مواطن الترغيب والترهيب ،
وعن مواضع الغضب والرضى والطاعة والعصيان ، وعن الزمن
الذي تنفع فيه الشدة ، الزمن الذي ينفع فيه اللين في صناعة المعلم
بطلابه تمهد له السبيل إلى النفوس البشرية فتصبح له ملكة
خاصة في سياسة الناس ، وفي استمالتهم وتسييرهم وفي استشارتهم
وتسكينهم وأمثال هذا كله ، وليس معنى كلامي أن كل معلم

يرزقه الله تعالى هذا الحظ من المعرفة ، في المميزين معدودين كما في كل طبقة من طبقات الناس ، ولكن رجلاً مثل الحجاج اختصه الله تعالى بما اختصه به من فضل السياسة قد زاده التعليم سعة في هذا المجال ، فجاء إلى العراق وقذف في مسجد الكوفة بالخطبة التي قذف بها ، وكأنما نار جهنم ، كان عنده بطبائع الناس ، ووقوفه على المذاهب التي تزعجهم وتزعزعهم ، ولولا معرفته هذه لما جرؤ على مثل ما جرؤ عليه في الكوفة ، وأهل المسجد الذين سمعوا هذه الخطبة لم يكن هواهم في بني مروان ، وما منهم رجل جالس في مجلسه إلا ومعه العشرون والثلاثون من أهله ومواليه ، لم يتحرك أحد منهم .

إلا أن التعليم لم يكن السبب الأوحد في توفيق الحجاج ، وإن بلاغة الحجاج كانت عاملاً من عوامل هذا التوفيق ، ولم ينكشف تأثير الكلام في الجماهير انكشافه في عصرنا هذا ، وإن أكثر رجال السياسة الموفقين في سياستهم هم أمراء البيان ، ومن لم يكتب له نصيب من هذه البلاغة قل حظه من التوفيق في السياسة ، والحجاج في هذا الميدان فارس في الرعيل الأول من الفرسان ، فقد ذكروا عنه أنه إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ،

ثم تكلم رويداً رويداً لا يكاد يسمع ، ثم تزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ويزحزح العمامة عن رأسه . فهي من في سجعه . وقال فيه مالك بن دينار : ربما سمعت الحجاج يخطب ، ويذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج ، وقد تمت في أن شكله الذي كان به بعض ... أثر في خطابته فضلاً عن بلاغته ، فقد كان أخفش العينين ، منشق الأخمص ، أصك الرجلين .

وفي خطبة حضرها في الكوفة كان هذا أبين في توقيعه ، وقد تصرف في خطبته هذه تصرف الممثلين ... ، في صعوده المنبر متلثماً ، متنكباً قوسه ، ثم حسر اللثام ووضع يده على فيه ، ثم تكلم رويداً ، ثم تزيد في الكلام ، ثم رجع به ، كل هذا من أجل أن يثبت الأنظار إليه ، ويحتج بذلك عيون الناس قبل الشروع في الكلام ، وهذا باب من أبواب البراعة ، ولا تخلو من فائدة هذه الحركات كلها ضعف سلطانه على القلوب ، ولكنه حين فعل كل شيء أن تمكن العيون منه ، فلما تمكنت منه هذا التمكن ، وخضع المسجد ...

حسر اللثام عن وجهه، ثم نحّى العمامة عن رأسه، ثم مضى في الكلام، وكان من أمره ما كان.

ولا ريب في أن الحجاج ما قصد بأول خطبته هذه إلا العلم بأنه يوهم أهل المسجد، على أمير عصره هذا، والتمويه أسلوب من الأساليب المدهشة، فسلبهم إرادتهم وشعورهم وتفكيرهم، وعرف أنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا في شيء من هذه الإرادة ومن هذا الشعور ومن هذا التفكير، فأخذ يلعب بهم كما يلعب الطفل بالشيء يديره، واستمر على طريقته من الشدة في الكلام، والمغالاة فيه دون أن يخشى خروج أحد عليه من أهل المسجد، ولكن لهوه قد أرادته فيه شراسته، أمرهم فيأتمرون ونهاهم فينتهون، وأكبر دليل على ذلك قوله لهم: سلّم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام، فلما قال قوله هذا، قال أهل المسجد كلهم: وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته!
وهو يشمت عليه شامت.

وإذا أضفنا إلى بلاغة الحجاج قوة شخصيته عرفنا أن هذه الشخصية عامل آخر من عوامل توفيقه، فإن الشيوخ يقيمون حساب الأمور وأربابها، فلا يتحمسون للأعمال من حولهم في

الذي يتحمس فيه الشباب، وحجة ذلك أن عبد الملك بن مروان
لما ندب أصحابه إلى العراق تهيبوا الأمر وحذروه، فتقدم
الشاب في الإقدام على عظائم الأمور غير هؤلاء الشيوخ، وقد كان
الحجاج في ولايته العراق في مقتبل العمر، كان عمره ينيف
على ثلاثين سنة، وكان واثقا بنفسه الثقة كلها، عالما بأنه أمير
الكتيبة التي هزمت [illegible] وحاصرته وشدد عليه محاصرا،
ومع هذا كله فقد أخذ بالحيطة في أمره، فلم يقدم العراق على
ما ذكره بعض المؤرخين في ثمانية رجال أو تسعة على النجائب،
وإنما قدم الكوفة ومعه جيش ولكنه لما بلغ القادسية أمر
جيوشه أن يقيموا وأن يروحوا وراءه، ودعا بنجيب عليه قتب،
فجلس عليه بغير خشب ولا وطاء، وأخذ كتاب عبد الملك بيده،
ولبس ثياب السفر، وتعمم بعمامته حتى دخل الكوفة وحده،
ولم يدخل بغداد، كما قال بعضهم، لأن بغداد من بناء المنصور،
ولم تكن في أيام الحجاج، وعلى هذا لا يصح من المشهور أن يقدم
العراق في ثمانية رجال أو تسعة، وإنما ترك جيشه في القادسية
وهي على أبواب الكوفة، وإن شباب الحجاج لم يمنعه عن حيطة

الشيوخ ، فهو أعقل من أن يجرؤ على العراق دون الاستعانة
بالجيش ، والعراق يومئذ جمل من نار !

وإذا كان زياد قد نجحت سياسته لجمعه بين الشدة واللين ،
فإن الحجاج قد نجحت سياسته لانفرادها بالشدة وحدها ،
ولا يخطرن ببال أحد أنني في مقام تحسين الشدة أو تحريض
عليها ، وإنما اضطررت إلى ذكرها لأنها عنوان سياسة الحجاج
المبنية على علم النفس ، ولولا حظه من السياسة النفسية لما
احتمله العراق عشرين سنة !

موسى بن نصير

قد كانت لموسى بن نصير شهرة فى التاريخ تكاد تكون منقطعة النظير ، ولكن غيرنا من هذه الشهرة لا تنسب لعبقرية ، فى [illegible] به لموسى فيه روح السياسة العصبية ، كان عقد عبد العزيز بن مروان موسى بن نصير على إفريقية فاتحة خير فى تاريخ العرب ، فقد ذكر بعض مؤرخيه أنه قدم إفريقية وجدها مخوفة ، بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا فى المدن قرب العدو منهم ، وكانت جنده كلها محاربة لا تزال ، وكذلك غذاه السهول ، فترك القلاع وخشن [illegible] حتى وضع الله رعبهم وذل عدوهم ، وفتحها على المسلمين ومن يقرأ ما يعرف البلاد التى فتحها ، ومقدار الغنائم التى غنمها المسلمون من البلاد ، والجواهر واليواقيت والفضة والذهب ولو وجد فيه [illegible] فى كتب التاريخ

ولما فرغ من إفريقية وجه مولاه طارقاً إلى الأندلس ثم لحق به ، فافتتح مدناً يميناً وشمالاً ، وقد ظهره الله ونصره وفتح على

لديه ما لم يتح على يدي أحد ، ودانت له الأندلس ، وما هزمت
له راية ، ولا فض له جمع ، ولا نكب المسلمون معه نكبة حتى مات ،
ولو نفذ ما رسمه لتقدم إلى رومية على حسب ما قال . فقد
كان من ذلك قريبة في سبيل الله نهيه لأمر الخليفة الجديد

ولكن ما السر في هذا التوفيق العظيم ؟ لا شك في أن في
ذلك عوامل كثيرة ، سأل سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير
عما كان يفزع إليه في حروب عدوه ؟ قال : التوكل والدعاء يا
الله يا أمير المؤمنين ، قال له سليمان : هل كنت تمتنع في حصون
وخنادق ، أو كنت تخندق حولك ؟ قال : كل هذا لم أصنع ،
قال : فما كنت تفعل ؟ قال : كنت أنزل السهل ، وأستشعر
الخوف والصبر ، وأتحصن بالسيف والمغفر ، وأستعين بالله وأرغب
إليه في النصر .

قد يكون هذا كله سببًا من أسباب توفيق موسى بن نصير ،
ولكن الذي في القصة الأخيرة من هذه الحكاية الأمر ، قال
له سليمان : فأي كان من العرب فرسانك ؟ قال : حمير . قال :
فأي الأمم في تلك البلاد كانوا أشد قتالا ؟ قال : هم يا أمير
المؤمنين أكثر من أن أصفهم ، قال له : أخبرني عن الروم ؟ قال

أسود في حصونهم، عقبان على خيولهم، نساء في مواكبهم، إن رأوا فرصة افترصوها، وإن خافوا غلبة فوعول ترقى في أجبال، لا يرون عاراً في هزيمة تكون لهم منجاة. قال: فأخبرني عن البربر، قال: هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسية وسماحة وبادية، غير أنهم يا أمير المؤمنين غدر. قال: فأخبرني عن الأشبان. قال: ملوك مترفون، وفرسان لا يجبنون. قال: فأخبرني عن الإفرنج، قال: هناك يا أمير المؤمنين العدد والعدة والجلد والشدة، وبين ذلك أمر كبير، ومنهم العزيز ومنهم الذليل، وكل قد نعت بشكله، فمنهم المصلح ومنهم المحارب المقهور والعزيز الممدوح.

***

وإني لأرى في هذه الكلمة أعظم الأسباب في توفيق موسى بن نصير، لقد دخل إفريقية والأندلس وهو لا عهد له بأخلاق أهلها وطبائعهم، وقد بقي بإفريقية ست عشرة سنة على رواية بعض المؤرخين وقضى في الأندلس عشرين شهراً، فاستطاع في خلال هذه المدة الطويلة أن يختبر أخلاق الأمم التي كان يحاربها ويدعوها إلى طاعة أمير المؤمنين، وأن يعرف طبائعهم، حتى عرف

شجعة الشجعان منهم وجبن الجبناء ، وكشف عن عيوبهم
ونقائصهم ، واهتدى إلى مواطن الضعف والقوة في أخلاقهم ، وفي
كل أمة مزايا كثيرة ، وعيوب إليها قد ينسب ، ولعمري إن
هذه المعرفة الحقيقية هي التي أعانته على فتح إفريقية أولاً والأندلس
ثانياً ، وليس من اليسير أن يظفر بعدو فيه عَدد وعُدة وفيه جَلد
وشدة وفيه نجدة وصبر ، ولكنه قبل أن يعمل السيف في هذا
العدو أعمل فيه الفكر ، فاستعان بما هداه إليه هذا الفكر من
الكشف عن أخلاق العدو وإبراز مواضعه ، ونعتقد أن موسى
ابن نصير إذا نجحت سياسته في إفريقية والأندلس فلأن لمعرفته
الدقيقة بأخلاق أهل البلاد التي فتحها سراً عظيماً وأثراً بيناً .

وكما كان حاذقاً في معرفة أخلاق الأمم فقد كان حاذقاً في
معرفة أخلاق الأفراد ، فقد تجهز سليمان بن عبد الملك للحج سنة
ثمان وتسعين ، وأمر موسى بن نصير بالشخوص إلى الحج معه ،
فذكر له موسى أنه ضعيف ، فأمر له سليمان بثلاثين نجيباً موقورة
جهازاً وبحجرة من حجره وجنائبه ، فحج سليمان وحج معه موسى ،
فبينما هو يسير يوماً إذ دعا بموسى فدعاه خالد بن الريان وكان
موسى يساير رجلاً ، ثم التفت موسى إلى بدنه ، ثم دعا به

سليمان فعدّاه خالد أيضاً ، فلم ينتفع به ، فقال له الرجل
عمّرك الله ألم تسمع دعاء أمير المؤمنين ؟ إلى خلفه وخلف ب
غضب ! فقال موسى : دعه ، كل عبد لملك أو لوليد ، و
هذا وربه يرضيه من يرضي الحي ويسخطه من يسخطه ، وسترى
ذلك ، ثم تقدم موسى حتى لحق واتصل بسليمان ، فقال له سليمان :
أين كنت يا ابن نصير ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، أين دوابي
من دوابك ! إلى مدد دعائي أمير المؤمنين في كذا حتى لحقت
أمير المؤمنين . فضحك سليمان وأمر له بدواب من مراكبه .
فسايره وحادثه ثم صرف عنه ، فلحق الرجل به ، فقال له
موسى : كيف رأيت ؟ فقال الرجل : أنت أعلم !

ليس بكثير على رجل مثل موسى بن نصير أن يعرف أخلاق
سليمان بن عبد الملك ، وقد عرف أخلاق أخيه محمد قبله ، ومن
علائق مثل العمل الذي تقدم ذكره كان كافياً أن يعود
سليمان إلى حقده على موسى بن نصير ؟ وإن سليمان بن عبد الملك
لا ينسى إساءة موسى إليه ، وخبره مع موسى مشهورة ، وكذلك
مع الحجاج ، ولما استخلف بعد أخيه الوليد كان حنق الناس
على الحجاج وعلى موسى بن نصير ، وكان حنقه عليهم لأن

آخر خلفاء بني أمية

لئن افتتحت خلافة بني أمية بجماعة تمكنوا من بناء سياستهم على أصول علم النفس، مثل معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك، فقد اختتمت بخليفة غلبته عاطفة نفسية كان فيها ضياع حياته وحياة أهله، ولو لم يعدها لما دال إليه ملكه، وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم.

ما هذه العاطفة النفسية ؟

روى المسعودي في تاريخه أن إسمعيل بن عبد الله القسري قال: دعاني مروان وقد ولى على الهزيمة إلى حران، فقال: يا أبا هاشم! وما كان يكنيني قبلها، قد ترى ما جاء من الأمر وأنت الموثوق به ولا مخبأ بعد اليوم، فما ترى؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! علام أجمعت؟ قال: على أن أرتحل بموالي ومن تبعني من الناس حتى أقطع الدرب وأميل إلى مدينة من مدن الروم فأنزلها، وأكاتب صاحبها، وأستوثق منه، فقد فعل ذلك جماعة

من ملوك الأعاجم وليس هو غازيًا للملوك ، ولا يزال يأتيني الخائف
والهارب والطامع ، فيكفه من معي ، ولا أزال على ذلك حتى
يكشف الله عني ويصرفني على عدوي ، فلما رأيت ما صمم
عليه وكان الرأي ، ورأيت ثورة في قومي من قحطان ولم آمن
غدرهم ، فقلت : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي ،
تحكم أهل الشرك في سنتك وحرمك ، وهم الروم ، ولا وفاء لهم ،
ولا تدري ما تأتي به الأيام ، وأنت إن حدث عليك حادث
بأرض النصرانية ، ولا يحدث إلا خير ، ضاع من بعدك ، ولكن
اقطع الفرات ، ثم استنفر الشام جندًا جندًا وثب في كنف وعزة ،
ولك في كل جند صنائع يسيرون معك حتى تأتي مصر ، فإنها أكثر
أرض الله مالًا وخيلًا ورجالًا ، ثم الشام أمامك ، وإفريقية
خلفك ، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام ، وإن كانت
الأخرى مضيت إلى إفريقية . قال : صدقت ! وأستخير الله ،
فقطع الفرات ، ووالله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان : ابن
حديدة السلمي ، وكان أخاه من الرضاعة والكوثر بن الأسود
الغنوي ، وغدر معه مروان بعصبيته من العرب شيئًا ، بل غدروا به
وغدروه ، فلما حضر بلاد قنسرين وحاضر أوقعت تنوخ

[illegible]

بني العباس .

[illegible]

[illegible] عبد الله بن محمد .

وكان فيهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وأبان بن معاوية
بن هشام، وعبد الرحمن بن معاوية، وغيرهم من صغار بني أمية،
فأتى عبد الرحمن بن معاوية الفتية رجل كان صحبه أبوه وأسداه
خيراً وأولاه جميلاً فقال له: أخفني اليوم في كنفك، ثم أعطني إلى
يوم القيامة، فقال له عبد الرحمن: وما أطمعك فيه اليوم؟ فقال
له الرجل: أدركت موضع سقطتك وعلامتك بالمغرب، [illegible]
[illegible]! أين هذا عذر من السفاح، يريد قتل من بقي من بني
أمية، فقال عبد الرحمن: ويحك إنه كتب لي الأندلس أقدم
عليه بأمره فيه [illegible] [illegible] الكامل
والرزق الوفر، فقال له الرجل: ويحك نفسك، والله لا يستقر
ملك في الأندلس ولا يستقر إلا على صاحب [illegible] عين تطرف
فقال له عبد الرحمن: ما الذي أطمعك في هذا، فقال الرجل:
تقدر أن أنظر إلى ما تحت ظهرك مكشوفاً؟ فقال له: وما
تريد بهذا؟ فقال له: إنك صاحب الأمر بالأندلس، فاكشف
لي، فكشف عبد الرحمن عن ظهره، فنظر إلى العلامة التي
كانت في ظهره قد وجدت في كتب الحدثان، وكانت العلامة
خالاً أسود عظيماً مرتفعاً على الظهر، فلما رآه، نظر إليه الرجل

قال له: النجاء النجاء! واهرب! اهرب! فوالله صاحب الأمر، فاخرج، فلما مضيت، وولى عشرون ألف دينار مصرورة كنت أعددتها لهذا الوقت . . . في خرجه . . . هذا الحديث، ثم ولى عبد الرحمن ذاهباً وخرج لا يدري متى خرج، فلحق بالمغرب.

وقبل أقواماً من بني أمية، وقد عد لهم السفاح مجلساً فيه أصحابهم من رجال ومعهم السيوف والأجربة، فخرجوا عليهم، فقتلهم وأخذ أموالهم واستحق عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وكان عبد الواحد قد بلغ المدينة في زمانه وسبق مجتهدين في عصره، وترك السفاح بن مولى عبد الواحد وكان عبد الواحد قد اتخذ أموالا مصحفة نظر فيها . . . والعيون، فأمره السفاح أن يصيرها إليه، فولى عنه واختفى منه، فأخذ رجلا من أهله، فسواعده السفاح فأرجعهم حتى دلوه عليه، فقبضه فرفقته، ثم استقدى منه، فبلغ ذلك أبا العباس أمير المؤمنين، وكان أبو العباس يعرفه قبل ذلك، وكان عبد الواحد أفضل قرشي كان في زمانه عبادة وفضلا، فقال أبو العباس: رحم الله عبد الواحد أما والله كان فاضلا بقاءه ولا مثل بشر

سياسة المال

[illegible]

في العوض .

[illegible] إليها أهل [illegible]

سياستهم ورشدت أحكامهم، لأنها مبنية على أرفق الوجوه وأروح
للأفراد والجماعات من جهة المال.

من خطب أبي بكر رضي الله عنه خطبة ورد فيها ما يلي:

« أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن
كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت،
ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد
أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً ».

عرف أبو بكر هذه الناس بالمال، فتوسع في المال يصرفه
في وجوهه، فقسمه في أزواج رسول الله، ثم في المهاجرين الأولين،
ثم في الأنصار، ثم بدأ بالمسلمين بحسب هؤلاء، وبذل نفقه
في أحسن الوجوه وأتمها، حتى استحق منه طاعة الناس، ولم يكن
لأحد منهم سلطان عليه. ومن حديث ابن وهب عن الليث أن
أبا بكر لم يكن يأخذ من بيت المال شيئاً ولا يجري عليه من الفيء
درهماً، لأنه قد أنفق من ماله، فلما حضرته الوفاة أمر عائشة برده.

وجاء بعده عمر بن الخطاب فسار في الرعية من ناحية المال
السيرة نفسها، فقال في إحدى خطبه:

« إني أبعث عمالي ليعلموكم دينكم وسنتكم، ولا ليظلموكم

يقدر، واصبروا، وتجدوا ثمره. ألا من رابه شيء من ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفسي بيده لأقصنّه منه »

فقد علم سيدنا عمر بعبقرية المال في نفوس الأمة فجعل يسوس به بقوله: فلا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، فهو يعرف المعرفة كلها أن خذلان الأمور شعب سبيل إلى خروج الشعب على رجال الحكومة، ثم إلى موت حكومتهم

كان يجري عليه درهمين كل يوم، وكان خشن الملبس، يلبس جبة الصوف المرقعة بالأدم، ويشتمل بالعباءة، ويحمل القربة على كتفه، وكان أكثر ركوبه الإبل ورحله مشدود بالليف، مع ما فتح الله عليه من البلاد ووسعه من المال، وقد سمعه عماله في هذه الشيم والأخلاق، وما أظن أني في حاجة إلى التنبيه على مصادرته أمواله على عماله في بعض الأحيان، فقد كان يرى منهم ظهور علامات الثروة والرفاهية لا تجيء في مثل هذه المدة، فيشاطرهم في ثرواتهم، ويحاسبهم على أموالهم، وفي كتب التاريخ كثير من الشواهد على ذلك، وما ذكرت ما ذكرت إلا إشارة إلى زهده في بيت المال وحرصه على مال المسلمين. وهذا ما جعله في الناس، وجعل سياسته فيهم رشيدة، فضلا عن صفاته الأخرى

[illegible]

[illegible]

صدقة الخيل والرقيق

[illegible]

ذلك على عثمان .

[illegible]

أكلت طعمت وسكت كان خيراً لك ، فقد غزوت معه إفريقية وبعث لأهلها مالاً ورقيقاً وعواناً وأخذت ثقلاً ، فأعطاك بن عفان خمس إفريقية ، وعلات على الحدود ، فحدثت أمور للمسلمين .

ومنها : كان مما أنكروا على عثمان أنه ولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم ، فوهبها له حين أتاه بها .

ومنها : لما قدم الوليد بن العقبة الكوفة ألفى ابن مسعود على بيت المال فاستقرضه مالاً ، وقد كانت الولاة تفعل ذلك ، ثم ترد ما تأخذ ، فأقرضه عبد الله بن مسعود ما سأله ، ثم إنه اقتضاه إياه ، فكتب الوليد في ذلك إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن مسعود : إنما أنت خازن لنا ، فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال ، فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال : كنت أظن أني خازن للمسلمين ، فأما إذ كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك ، وأقام بالكوفة بعد إلقائه مفاتيح بيت المال .

ومنها : أنكر على عثمان مما أنكر أنه حمى حمى ، وأنه أعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ، من ألف ألف درهم حملها أبو موسى الأشعري ، وقال له : هذا حقك !

ومنها أنه كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجوهر ، فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعض أهله ، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك ، وكلموه بكلام شديد حتى أغضبوه .

ومنها ورد [illegible] المدينة وخطباؤهم [illegible] عثمان ، فأشرف عليهم عثمان فقال : أيها الناس ، ما الذي تنقمون علي ، وإني معتبكم [illegible] عند محبتكم ، فجعلوا يذكرون له أمورًا قد ذكروا عليه ، وكان يرد على كل أمر [illegible] ذكروه بمال الله الذي أعطاه [illegible] اكتتبوا [illegible] صكًا لأخذ منه ما قدروا على تحصيله [illegible] في [illegible]

من هذا يتبين أن [illegible] في [illegible] وقد رد على كل أمر [illegible] اعترف به .

ومما يعيب الناس عليه أن الناس في عصر عمر بن الخطاب كانوا على كثير من خشونة الحياة [illegible] فلما [illegible] عثمان بن عفان [illegible] في العصر ، فبنى داره في المدينة وشيدها بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، واقتنى أموالا [illegible] وعيونًا بالمدينة ، وجمع خيلا كثيرة وإبلا ، وكان عند خازنه يوم قتل خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم

على غيرها، وفي هذه الحالة يزداد تقديمه في الحضر، ويكثر
مثل [illegible] كل الحضر.

أجل، لا يهمنا من [illegible] الآن ذكرتهم شيء،
سوء عليه [illegible] وعدم [illegible] تعليمهم وتشويههم [illegible] بعض
إلى هذا المعنى والتوسع في النفقة والمدح من ناحية تأثيره السيء
في الأمة، فإن من سوء عادة بعض رجال الحكومة تدليسهم على
هذه الأحوال، وبعضهم لا يسلم منها في حق الوطن،
ولا سيما إذا كانت الأمة في شيء من الحرية في نقمتها على
رجال الحكومة في مثل هذه الحال شدة، وحقدها عليهم عظيم،
وقد ضاع الحق في مثل هذه الأحوال، فتكاثر التهم، وعن
التمحيص، ويشتد الحقد، ويكون في هذا كله أثر واحد وهو
مصدر المدح والإسراف والتبذير، وهذه مصادر هي التي تؤثر
في عيون الناس وقلوبهم، وتؤثر في نفوسهم النقمة والحقد، وتحملهم
على وثوب رجال الحكومات والثورة عليهم.

إني أعتقد أن في المدح نزعة عقلية واسعة التأثير [illegible] والدور
عاملا من أقوى العوامل النفسية عليه، وقد ذهب المؤرخون في
معتقدهم كل مذهب، فمنهم من رأى أن السياسة التي جرى عليها

في مستقبل أمره ، وأهل بيته كانت السبب في خاتمته الأليمة ، ومنهم من رأى أن هذا لقتل حرص عليه جماعة يطمعون في الخلافة . وكيف كان الأمر فقد كانت سياسته سياسة لينة لا عنيفة ولولاها ما استطاعوا فتح هذا الباب ، أو كانوا يستطيعون فتحه من ناحية ثانية يفتشون عنها . وعلى كل حال فقد كانت هذه السياسة عاطفية نفسية ، فإذا تحكمت عليهم وفي أكثر علمهم ، من ناحية هذه عاطفة لا غير ، ثم هي نتيجة سياسة من هذا الطراز ، والنتيجة تمت محزنة ، ولكنها سنة الطبيعة ، فقد قتل سيدنا عثمان المساكين لم يكن فيهم شيء من الإنسانية ، فلا شفقة ولا رحمة ، لم تشفع له صحبته مع النبي ، ولا شفع له تكريم النبي إياه ، ولا طعنه في السن ، ولا فرط تقواه ، ولا شيخوخته الصالحة ، ولا مصحفه بين ركبتيه ، فالناس إذا ثاروا على أمر من الأمور طاروا إلى مساوئ هذا الأمر ، فلا يروعهم عن شدتهم شيء من اللين والشفقة والرحمة .

***

وقد جاء بعد سيدنا عثمان خلفاء من بني أمية أدركوا تأثير المال في الرعية ، وفهموا أسرار سياسته ، فكان فهمهم سر نجاحهم

[illegible]

[illegible]

شيء ، فقد عرف يزيد بن الوليد مواطن العجب ، والحب في
نفوس الأمة ، فلعب على هذه النفوس من مواطن الرهبة وتجنب
مواطن الغضب ، وهذا روح السياسة .

هذه شواهد يسيرة على علم بعض خلفاء الأمويين بنفسية
الأمة ورغبتها في صيغة خاصة ، وصنعة هؤلاء الخلفاء في كلام
مثل الكلام الذي تقدم وهو مبني على معرفتهم بمواضع النفخة ، نفخة
في أعصاب الناس .

هشام بن عبد الملك

رأينا في الفصل المتقدم كيف كانت عواقب سياسة الذين أسرفوا في اللذات وبددوا ثروات مال المسلمين ، ونحن في السياسة عواقبه قريبة من عواقب التبذير ، ومن [illegible] طائفة سلكت مسلكا وسطا ، وعلى رأسهم هشام بن عبد الملك ، فلنذكر عواقب سياستهم الرشيدة مفصلة [illegible]

ذكر فريق من المؤرخين أشياء كثيرة عن أخلاق هشام بن عبد الملك ، فقد أشاروا إلى [illegible] في مجلسه ، [illegible] عن بعض [illegible] في [illegible] من [illegible] بالإصلاح وتهذيب النفس [illegible] و [illegible] على [illegible] ودونه للمصلحة [illegible] لأهل [illegible] حتى [illegible] أنت عليه ثمرات من [illegible] من [illegible] لا يعمد في شيء ولا [illegible] أحد في خصومة [illegible] عن [illegible] والمعروف من [illegible] فقد [illegible] و [illegible]

[illegible]

[illegible]

رجل بني أمية هشام .

[illegible]

[illegible]

الفصل .

* * *

[illegible]

كسرك؟ قال: ألف دينار وألف دينار، قال:
وأطرق هشام طويلا ثم قال: يابن أبي الجهم، [illegible] لا يحتمل
ما ذكرت، ثم قال له: هيه، [illegible] هيه! [illegible] والله [illegible] الأمر
لولي أحد! ولكن الله [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] يا أمير المؤمنين! [illegible] الله
[illegible] العطاء، محبة واسمع مبغضة، والله لأن [illegible] [illegible] من
[illegible] [illegible] قال: ألف دينار ماذا؟ قال: [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] قال: [illegible]
[illegible] [illegible] وألف دينار ماذا؟ قال: [illegible]
من [illegible] من ولدي، قال: [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] وألف دينار لماذا؟ قال: [illegible]
[illegible] ولدي [illegible] على [illegible] دهري،
وتكون ذخرا من بقي [illegible] قد أمر لك [illegible] قال:
فالمحمود الله على ذلك وخرج، [illegible] [illegible] [illegible] إذا
كان القرشي فليكن مثل هذا، ما رأيت رجلا [illegible] في عقل
ولا [illegible] في بيان منه، ثم قال: [illegible] والله [illegible] يعرف حق [illegible]
[illegible] ويكره الإسراف [illegible] [illegible] ولا [illegible] فقيرا،

وإنما نحن خزان الله في بلاده، وأمناؤه على عباده، فإذا أذن أعطينا، وإذا منع أمسكنا، ولو كان كل قائل يصدق، وكل سائل يستحق، ما جبهنا قائلا، ولا رددنا سائلا، ونسأل الذي بيده ما استحفظنا أن يجريه على أيدينا؛ فإنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بعباده خبير بصير.

وإذا تدبرنا هذه القصة نستطيع أن ندرك سياسة هشام بن عبد الملك في تدبير المال. فبدء الشق الأول يدل على أنه يمنع ثم يعطي، ولكنه لا يعطي إلا إذا رأى سبيلا إلى العطاء، فقد منع عن الأعرابي في خطبته أولا، ولكنه لما تبين له أن هذا الرجل سيشرف في وجهه عاد إلى العطاء، ويدل الشق الأخير من القصة على توضيح هشام بن عبد الملك سياسته في تدبير المال، فإنه يكره الإسراف والتعطيل، فلا يعطي تبذيراً ولا يمنع تقتيراً، وهذه العبارة على اختصارها تتضمن نظرة إجمالية إلى طرق إنفاق المال، فإنه يكره الإسراف، وفي تاريخ العرب أمور كثيرة تدل على أن طائفة من الملوك والخلفاء خسرت سياستهم لأنهم أسرفوا في مال المسلمين، وإنه يكره التعطيل، وفي هذا التاريخ عينه أمور غير قليلة تبين لنا أن بعض الملوك والخلفاء إنما نجحت سياستهم

[illegible]

السياسة الذهبية .

خاتمة القول

هذا آخر ما أحببت الإشارة إليه فى كلامى على العناصر النفسية فى سياسة العرب ، ولم أستقص فى تاريخ العرب عامة ، وإنما استخرجت نماذج السياسات النفسية التى ذكرتها فى هذا الكتاب من تاريخ الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وعمالهم ، ولو اتسع المجال لاستنباط نماذج ثانية من تاريخ بنى العباس لفعلت ، على أن هذا القليل الذى أثبته قد دلنا الدلالة الواضحة على أن كثيراً من عمال العرب وأمرائهم وخلفائهم قرنوا سياستهم بعلم النفس ، فالسياسة وعلم النفس متلازمان ، وكل سياسة منحرفة عن علم النفس إنما هى سياسة فاسدة . ولقد أحس بعض كتاب العرب المتقدمين بهذا الأمر فوضعوا الكتب فى هذا الباب ، وقد طالعت كتاباً صغيراً اسمه : سلوك المالك فى تدبير الممالك ، لصاحبه شهاب الدين بن أبى ربيع ، ألفه للخليفة المعتصم .

بنى ابن أبي ربيع كتابه على أربعة فصول: فصل في المقدمة وثلاثة فصول في أحكام الأخلاق وأقسامها وفي أصناف السيرة العقلية وانتظامها وفي أقسام السياسات وأحكامها.

عنوان الكتاب يدل على موضوعاته، فهو عبارة عن جملة قواعد وضعت للذين يسوسون أمور الناس.

من هذه القواعد مايلي: سأل الاسكندر حكيما: من يصلح للملك؟ فقال له: إما ملك حكيم! أو ملك ملتمس للحكمة، والحكمة في هذا المقام معناها الفلسفة.

ومن جملتها: وعلى الملك أن يعرف أكثر أخلاق رعيته ليؤهل كلاً لما يصلح له من الولايات.

إلا أن التربة الخصبة التي نبت فيها هذا الرأي، قرن السياسة بعلم النفس إنما هي تربة المدينة الفاضلة لأفلاطون، وإذا كانت دساتير الأمم في عصرنا قد اختلفت عن دساتير المتقدمين، فأصبح للأمم مجالس نواب ومجالس شيوخ وغير ذلك فإن شيئاً واحداً

لم يتغير، وهو بناء السياسة على علم النفس، فالسياسة الحكيمة هي التي تتصل بمعرفة النفوس والأخلاق.

ومن كتاب هذا العصر «موروا» وله كتاب اسمه: فن الحياة، أو أحد فنون الحياة، من فصول هذا الكتاب: فصل فن الحكم، فقد تكلم فيه المؤلف على أخلاق الرؤساء الذين يسوسون أمور الناس، فالرئيس الكبير في نظره هو صاحب الخلق الكبير، الرئيس الكبير هو الرئيس المتجرد، وقد ذكر رؤساء لم يكونوا من أصحاب الذهن والعقل، ولكنهم كانوا لا يشك أحد في نزاهتهم، فقد تخلى بعضهم للدولة عن قسم من ماله، وكان بعضهم لا يرضى بأن يسخر أحداً من الموظفين في وزارته في شغله الخاص، فكل قوتهم صادرة عن هذه الفضيلة الابتدائية، وهي النزاهة.

فنحن نرى أن المؤلفين لا يبحثون عن السياسة إلا بحثوا عن الأخلاق وعن علم النفس: فالسياسة أخت علم النفس وأخت الأخلاق، على خلاف ما هو شائع من أن السياسة لا خلق لها، فإن السياسة التي لا خلق لها إنما هي سياسة لا تلبث أن تتلاشى

كما يتلاشى الدخان فى الفضاء ، وما نجحت سياسة بعض رجال العرب فى الماضى ، مثل الذين أثنيت على ذكرهم ، إلا لأن أصحابها كانوا على خلق عظيم ، وكانوا زيادة على ذلك عالمين بأسرار النفوس واقفين على حقائق الطبائع ، مطلعين على خفايا الأمزجة .

فإذا تجرد رجال السياسة من الأخلاق ومن معرفة نفوس الناس ضاعت سياستهم وضاع الناس وضاعت البلاد فى وقت واحد !